المجموعة الكبيرة من حيث الشكل او المضمون. على أن هناك سطوراً من الحوار في رج فيدا قد باصالتها النثرية ــ كما بدا لعدد من النقاد و المؤرخين ــ و لكنني اعتقد ان مثل هذه الإيحاآت لا تملكه قيمة الدلالة التاريخية، و هي ــ في نظري ــ مجرد تخمينات و ظنون، و الظن لا يغني عن الحق شيئاً، و لقلة الادلة الإيجابية القائلة باصالتها النثرية لا يمكن تأييد هذا المقترح أن هناك سطوراً من النثر في رج فيدا، و هناك من المؤرخين من يرى في هذا السياق إمكانية وجود السطور النثرية في رج فيدا، و التي لم تعها ذاكرة التأريخ، بل نسيتها، فذاكرة التاريخ لم تكن مسلحة بالوسائل الهائلة المتوفرة لدينا الآن، و حفظ النظم ايسر من حفظ النثر في ذاكرة الإنسان. إنسان الأمس أو إنسان اليوم، فلا يمكن القول بأن رج فيدا كان يحوى سطوراً من النثر في سياق النظم و المقطوعات في أي زمن من التاريخ، و قد اثبت علم النفس و الاجتماع و الانتروبولوجيا أن الإنسان يجد في نفسه دافعاً خاصاً لاستخدام لغة النظم و الايقاع في التعبير عن أحاسيسه و انطباعاته. الإنسان يجد النظم اكثر تلاؤماً بالايقاع و الشعر، و المحتوى الشعري طالما يلتمس التعبير المنظوم، إذ هو ذريعة طبيعية له.

و لكن الطبع الإنساني يحب النثر ايضاً، و الإنسان يكثر استخدام النثر في غدواته و روحاته، في حياته العادية، و الحياة العادية لا تفارق الإنسان في أي زمان أو مكان، و التاريخ يسجل اللقاء بين ناحيتي الإيحاء و العادة في شخص الإنسان ــ لأول مرة ــ في الآداب السنسكريتية في "كاسنا يجورفيدا" أو "يجورفيدا الأسود"، و يسمى هذا الفيدا "اسود" لما اختلط النظم و النثر فيه، و هذا بالعكس لما يجده الباحث في "سكلا يجور فيدا" او "يجور فيدا الابيض" و هذا الاخير كله في النظم، و الابيض يدل على الصفاء، و الاسود يدل

على الخلط المزج، و من هنا نتعرف على اتجاهات الفيديين ـ رجال العصور الفيدية ـ في الكتابة النثرية.

و على كل، فإن عبارات النثر دخلت هذا النوع من الأدب المدعو بـ "سمهيتا" في اللغة السنسكريتية عن طريق شرح المفردات و المنظومات المعقدة و إيراد تفاصيل لها، و النثر هنا بسيط مستخدم للشرح و الإيضاح فحسب، و كله جمل قصيرة، و لكل جملة فعل خاص، و هذا الفعل الخاص هو الفعل المعروف في الغالب ـ الفعل المعروف بجنب الفعل المجهول في القواعد اللغوية ـ و المبتداء طالما يكون من غير متعلقات له، و الموصوف قلما يصحب الصفة.

هذه البداية المتواضعة لكتابة النثر تشكل نموذجاً معيناً لكتاب في الأيام المقبلة، و الذين قاموا بإنتاج أعمال جليلة في النثر و هي تعرف بإسم "براهمنا" في التاريخ، و هذا الصنف الأدبي ـ في الواقع ـ مجموعة خطب حول الطقوس و آداب العبادات، و يتخذ مقطوعات الفيدا أساساً له، و الأسلوب المستخدم في أدب "براهمنا" سهل جداً، و لا يخلو من التكرار، و في هذا السياق يجده الباحث أسلوباً جدلياً لا يفيد إلا الإيضاح و البيان. و المواد المتعلقة بالبيان و الإيضاح مثلت دورها في تعزيز الطقوس و الآداب بينما نجد الأجزاء الجدلية منها تسهم في تطوير المنطق السنسكريتي، القسم الأول متصل بطقوس الديانة و آداب العبادة بينما يعتبر القسم الثاني خطوة في اتجاه تطوير الفكر الفلسفي، و هذا الجزء الأخير من آداب "براهمنا" ادى إلى تطوير نثر الاوبنيشاد (Upnishad) في أسلوبه السلس و رصانته المنطقية، و يدل على التطور الهائل في النثر الذي حقق اغراضاً شتى، و تميز النثر الاوبنيشادي بمزايا عدة، منها البحث الفلسفي و المنهجية الجدلية، و قد يغرق هذا النثر في أنواع من البديع و المجاز. و هذا

النثر الاوبنيشادي هو المسئول عن تطور أدب السنكرا (Sankara) الذي يعتبر أروع نموذج للنثر الفلسفي في اللغة السنسكريتية.

و هناك خلف آخر لأدب براهمنا المدعو فيما بعد بـ "سوترا" (Sutra)، و قد اشرنا فيما سبق إلى أن كتابة النثر في اللغة السنسكريتية بدأت على خط إيضاح أو تفسير طقوس العبادات و آدابها المضمونة في الفيدا، و هذه العملية للشرح و الإيضاح بلغت ذروتها الفنية في أدب براهمنا، و هنا تنبه الكتاب إلى ضرورة التلخيص لهذه المواد كلها، و تم هذا بالذات في أدب "كلب سوترا" (Kalpa Sutra) الذي يورد مغزى العبارات الطويلة في كلمات عديدة، و يترك التفاصيل التي لا تكون الضرورة داعية لها، و المنهجية التي اختارها الكتاب في أدب كلب سوترا تتمثل في اختيار كلمات رئيسية من العبارة و شرح معانيها و إيضاح محتوياتها في كلمات أخرى سهلة، و كان بطبيعة اللغة السنسكريتية أعظم الأثر في تسهيل هذه العملية، فهي لغة ذات إطناب إلى ما لا حد له، و ذات إيجاز قد يشبه لغزاً من الألغاز، و قواعدها اللغوية و البيانية تعاوننا في قطع عدد كبير من الكلمات في العبارة من غير أن يؤثر هذا القطع سلبياً في تأدية المغزى الفكري، و هذا الأسلوب للكتابة بلغ أوجه الفنى في اللغوي و النحوي السنسكريتي الكبير "بانينى" (Panini) الذي لخص القواعد النحوية و تفاصيلها في عشرين صفحة، لاغير، على أن الآخرين ربما يحتاجون لذلك إلى مجلدات ضخمة، و هذا الفن لصياغة سوترا تم اختياره في أعمال الفلسفة و الأخلاق و علم مساحة الأرض وغيرها من المعارف و العلوم، و مثل دوراً هاماً في تطوير الكتابة و نشر العلم في تلك الأزمنة التي لم تكن تحلم بمنجزات العلوم و التكنولوجيا التي نستخدمها اليوم بدون أي تعب.

هذا كله يرجع إلى ماقبل العهد المسيحي، ربما إلى القرن الثاني قبل الميلاد، و بمرور الزمن تحول أسلوب سوترا المؤجز إلى تاليف الشروح و التفاسير

لأدب سوترا نفسه، و هذه الشروح كبيرة و مفصلة جداً حيث إنها استخدمت آلافاً من الصفحات لشرح عدة صفحات من متن سوترا خاص، ثم إن ادب سوترا القديم المتميز بغموضه و إيهامه او إيجازه و البعيد من الروعة الأدبية تحول إلى أدب رائع في تقمصه الجديد المفصل، إذ التفاصيل هنا تتوفر فيها عناصر الجمال الأدبي، انظروا إلى الكاتب الشهير "باتانجلى" (Patanjali) و عمله الشهير "ماها بهاشيه" (Maha Bhasya) في شرح السوترا البانيني، أو إلى تفسير "شانكارا" (Sankara) لبراهما سوترا لبادريانا، فهما نمونجان لا مثيل لهما في الروعة الأدبية و الإيضاح و البيان، و على أن الموضوع هو موضوع القواعد اللغوية و المعالجات الفلسفية التي تتميز بقلة الروعة البيانية في الغالب، إلّا ان هذين العملين فيهما من أنواع المجاز و التشبيه و المجانسات و البدائع ما يجعلهما أروع نماذج النثر السنسكريتي الذي يتنوقه الخواص و الجماهير على السواء. و نجد بينهما التعبيرات الوجيزة البديعة في جمل تخلو من الإطناب الزائد، في اسلوب طبيعي سهل جذاب يعبر عن المغزى خير تعبير، ولكن هذه النماذج لم يكن احتذاءها و تقليدها في هذا الميدان، إذ كثرة الكتابات في الموضوع و طرق كل من هب و دب له ادى إلى تحويلها إلى شروح و تفاصيل محصنة، و الأسلوب العقيم الذي استخدمه الكتاب هنا في هذا الميدان أساء ــ فعلاً ــ إلى تطور النثر السنسكريتي على الخطوط "المتحجرة" الخالية من الإبداع الفني، إذ تحول الأمر إلى خلق نفسية دوغماتية تبذل قصارى جهودها في الدفاع عن نفسها ــ خيرها و شرها على السواء ــ من غير أن تتفتح لإمكانيات الإبداع الجديدة، و تحولت تلك المؤلفات إلى حصون يأوى إليها الكتاب و القراء، من غير أن يتنفسوا في الأجواء الفسيحة خارجها، و العمل على المنطق الجديد لم يزدهر إلّا في القرن الخامس عشر الميلادي، و هذا العمل

يكثر من استخدام المفردات الرنانة و النعوت و المتعلقات ما لا يفيد القاريء إلّا حيرة و اضطراباً و خلطاً في الموضوع.

و نلاحظ الاسلوب نفسه في تطور خلف آخر للنثر البراهمني، و لكن بمعطيات اكثر جودة من لداتها في الأول، و هذا الخلف هو القصة، لقد نشأت و ترعرعت قصص كثيرة من صميم الطقوس و الآداب الهندية السنسكريتية، و كلها تحتل مكانة و اهمية لا تنكر في التاريخ، و أحياناً نجد هذه القصص قصيرة جداً ربما لا تستغرق أكثر من عدة جمل، و تدور حول بطلين و حادث عادي، و طبعى ان يكون الأبطال في القصص السنسكريتية نكوراً أو إناثاً من الآلهة، و يتم تجسيم مواد القربان ايضاً و احياناً اخرى تطول القصص و تطول و مهما كانت القصص السنسكريتية قصيرة أو طويلة نجد تقميصها في المهابهاراتا و البورانا (Purans)، و كلها في النظم، و على غرار قصص المهابهاراتا ظهرت هناك نخبة من القصص المعروفة بإسم "بانجاتانترا"(Pancha Tantra)، و قصص بانجاتانترا كلها في النثر، و تدور حول الحيوانات و الطيور التي هي في غاية من الدهاء و الفسطنة، و التي تلقن الدروس حتى للإنسان، و هي تسبر أغوار علم النفس الحديث كما تطور في عصرنا الراهن، و تؤفر أمامنا المواد اللازمة لدراسة نفسية الإنسان، و هذه القصص لها من الأهمية و المكانة ما ادى إلى نقلها إلى اللغة الفهلوية مباشرة من اللغة السنسكريتية، ثم إلى اللغة العربية بإسم "كليلة دمنة" (لعبد الله ابن المقفع) في العصر الأموي. ثم إن لهذه الترجمة من الاهمية الأدبية ما ادى إلى نقلها إلى عدد من اللغات الأوروبية، و احتذاء القصصيين لها في تاليف القصص الأصيلة، اما الأسلوب الذي نجده في قصص بانجاتانترا فهو أسلوب في منتهى البساطة و الوضوح و الروعة، و كلها تستخدم لغة الحوار، و النثر خير ما يخدم

هـذا الـغـرض. و هـذه الـقـصـص جـديـرة بـالتقليد في كل من جوانبها الفكرية و الـبـيـانـيـة عـلـى الـسـواء: محتوياتها و لغتها و أسلوبها و محسناتها البديعية، و يـجـب أن نـتـبـنـه لهذا الواقع أن النثر السنسكريتي في اوج سهولته و عنوبته و روعـتـه البيانية نال الاعجاب و التقدير من القراء: محليين أو أجانب، و أعجب بـه الـقـاريء الـهـنـدي و غـيـر الـهـنـدي على السواء، مثلما نجده في الأوبنيشاد و قـصـص بـانـجـاتـانـتـرا، و تـتـميز اللغة المستخدمة في هذه القصص بقصر الـجـمل و بساطتها و الفعل المعروف، و لا تستخدم التراكيب المعقدة، فهي لغة فـي مـنـتـهى الجمال و الروعة و الوضوح و التاثير، و لكن يجب ان لا نتغاضى ان قصص بانجاتانترا لا تملك قيمة كبيرة من وجهة نظر ادبية، فهي تخدم التعليم اكـثـر من خـدمـتـه لـلأدب، و يمكن أن نقول إن هذه القصص مجموعة مواعظ و عـبـر، و تـخـدم الأغـراض الـخـلـقـيـة، و لاشك فإن لها روعة بيانية تتجلى في الاسـتـخـدام الفني الرائع لأدوار الحيوانات و الطيور، و هذه الحيوانات و الطيور تـقـدم لـلإنـسـان نـماذج حية للذكاء و الحكمة و السياسة و الدهاء، و هذا الوضع الـفـنـي تـم اسـتـخدامه بروعة و خبرة بالغة في قصص بانجاتانترا، و لأجل أنها الـفـت خـصـيـصـاً لـلأطـفال فاسلوبها أسلوب سهل بسيط يلائم نفسية الأطفال و يثير إعجابهم.

الـنـثـر الأدبي الـحـقـيـقي الذي بفضله ذاع صيت اللغة السنسكريتية تم إنـتـاجه في القرنين السادس و السابع للميلاد، و تفجر هذا النثر من طبائع ادباء ثـلاثـة هـم: دانـدى (Dandi) و سـوبـاندهو (Subandhu) و بانا (Bana)، على أن هـنـاك خـلافـاً كبيراً بين مؤرخي آداب اللغة السنسكريتية حول مصدر وحى هذا الـنـوع الـجـديـد من الـنـثـر الذي ظهر فجاءةً في أديم الهند الأدبي، فهناك بعض الـعـلماء الأوروبين الذين يرون إمكانية التأثير الإغريقي في هذا المضمار، و هذا

حـكم عشوائى سريع و لايوئيده برهان إيجابي معقول، و بالعكس من ذلك نجد في الـهـنـد نـفـسـها نماذج عديدة لمثل هذا النثر، و بخصوص في النقوش الحجرية لـرودرا دامـانـا (Rudradamana) عـلـى جبال جنور، و الميزة الباهرة لمثل هذا الـنـثر هي روعته الادبية، فليس هنا بيان الحقائق، أو المواعظ، او الحوادث، بل تـقميش و تطريز بديع في اسلوب خلاب، و هذا النثر يستخدم الأسماء مصحوبة بـانـواع من النعوت و الصفات في سلسلة طويلة، و بنية الكلام و التراكيب متينة ذات رنـات مـوسيقية و إيقاع مؤثر، و النعوت تستخدم كثيراً في هذا النثر بحيث نـجـد الأفـعـال لا تـحـتـل إلا الـدرجة الثانية و بوجه غير مباشر، اما قوة الأفعال فـنـجـدهـا تـقـتـحـم داخل النعوت، فليس لها دور سوى استكمال الجملة. و هذا يـجعله يتلاشى و يقع في الدرجة الثانية، و لا يتمكن الفعل من ممارسة دوره في الـجـملة بوجه عام، و قد يتكرم المؤلف بمنح دور للفعل أعم من هذا من غير أن يحرره كاملاً من نسيج النعوت، و هذه الميزة ـ اى كثرة النعوت ـ تجعل الجملة بـطـيئة في مسيرتها (كالسلحفاة؟) هذا جانب سلبي لهذا النوع من النثر، إلا انه طالما يصبح مغطى بغطاء هو الاستخدام الرائع الجميل للنعوت، و هذه النعوت فـيـهـا نسيج من معاني الفعل و الصفات، فالجمل في هذا النوع من النثر تطفح بـالـفـعـل بـقـوة تنبع من صميم النعوت، و بذلك قد تطول الجملة و يطول الكلام لأجـل الـتفاصيل غير الضرورية الموجودة فيه، و طالما يؤدى إلى خلل في نسيج الـقصة و المسيرة الطبيعية للحادث، و لكن في الوقت نفسه يتيح هذا النوع من الـكـتـابـة فـرصـة لـكى يتحلق التخييل في أدعيه سحرية تامة ملقى حبله على غاربه، و هذا يوشح الكلام بوشائح مكثفة من الجناس و البديع و المجاز، و لاشك فـإن الـكـلام بـهذه المزايا كلها يكون اقرب إلى الشعر منه إلى النثر، بل إلى شعر مـرهـف الـجـانـب فـي الـتـخـييل، و لا يخفى على الباحث أن المجاز في الكلام

الموزون و المقفى (الشعر؟) عيش باتزان مع الوزن، و لكنه يحظى بمرتع خصب لا حد له في النثر الشعري أو الشعر المنثور، و لعل هذا الذي اشار إليه ناقد كلاسيكى بقوله: النثر محك للعبقرية الشعرية.

الطابع الشعري لنثر ذلك العهد ـ على كل ـ ليس حادثاً عشوائياً، بل تمخض عنه توق الأديب لتوليد التأثير الشعري عبر النثر، الشعر محتوى روحي يجسم نفسه عن طريق النظم، و لكن هذا لا يعنى و لن يعنى استحالة وجود الشعر عبر وسيلة غير موزونة كالنثر، و هذا المنطق الخفى هو الذي اوحى إلى نخبة من الأدباء و الكتاب من ذلك العصر أن يقرضوا الشعر عبر النثر، و هذه الحركة الأدبية في تاريخ آداب اللغة السنسكريتية وجدت إثر عهد كالى داسا، و يظهر انها مارست تأثيرها ـ قليلاً او كثيراً ـ على هذا الأديب الكبير ايضاً، الواقع أن كالى داسا ركز على النظم بوجه خاص، و هذا هو السبب في نجاحه الباهر، و كان نموذجاً فذاً يقلده شعراء اللغة السنسكريتية، و هذا أمر لا يتنازع فيه إثنان من مؤرخي الآداب الهندية، و لكن النقطة التي تغاضاها و أهملها ـ على علم أو على غير علم؟ ـ النقاد هي أن كالى داسا نفسه لجأ إلى النثر أيضاً في مسرحياته و مسرحياته ذات محتوى شعرى عميق، و هو يخلق التأثير الشعري عن طريق النظم، و لكن النثر لا يقل شأناً من صفوه في هذا المجال، على انه الأمين الحقيقي للقصة و نسيجها، و النثر الذي ينتجه كالى داسا هو نثر في منتهى الجمال و الروعة حيث يتحير القارىء و يتسأل : ماذا؟ إن كان كالى داسا هجر الشعر و عكف على هذا النوع من النثر، هل كان له إلا أن يبزغ أديباً ذا شأن يفوق الأقران و يشار إليه بالبنان؟

هذه الإمكانية الأدبية تعرض لها ثالوث داندى و سوبندهو و بانا بهته بعد كالى داسا ببضعة قرون.

اما الموضوعات التي اختارها ثالوث داندى و سوبندهو و بانا بهته فهي تنقسم إلى قسمين: تاريخي و تمثيلي، و يجب أن نشير بصدد الموضوعات التأريخية إلى أن التاريخ الحقيقي ظل طريقاً غير معبد لعبقرية الهند المنتجة، و قلما نجد كاتباً أصيلاً يسجن نفسه داخل الأحداث التاريْخية و نسيجها الزمني المسلسل، و الشكل و الترتيب الحقيقيين، فهو يرى الأحداث بمنظوره الخاص، و يضع الترتيب الزمنى و التسلسل المنطقي بل و ظواهر الوقائع وضعاً ينبع من صميم مخيلته، و بذلك يتحول التاريخ إلى مزيج من الواقع و التخييل، و قد يشتد هذا الخلط فيصعب التفريق بين الحقيقة و المجاز و الحادث التأريخي و الوليد التخييلي للكاتب، و هذا الاتجاه يجعل الكاتب حراً في طرق الموضوعات التأريخية كلما شاء و كيف أراد، أ ليست هذه إساءة إلى التاريخ الحقيقي؟ مهما كان من الأمر، فإن هذا الاتجاه أدى إلى إنتاج روائع أدبية خالدة في تاريخ الهند الأدبي. و كتاب "هرش شرترا" (Hars Caritra) لبانا بهته نموذج شهير لمثل هذا النثر، و هذا النوع من الأدب يعرف في اللغة السنسكريتية باسم "اخيائيكا" اى "النثر الشعري المنسوج من التاريخ" و كما هو الظاهر من عنوان الكتاب نفسه "هرش شرترا" الموضوع هو سيرة هرش وردهن، الملك الشهير الذي حكم الهند ـ شمال الهند طبعاً ـ من عام ٦٠٦ الميلادي إلى عام ٦٤٧ الميلادي، و لا شك فإن شخصية هذا الملك شهيرة في الهند، و هي شخصية متعددة الجوانب، و هي معروفة لمغامراتها السياسية و مواهبها الإدارية، إلا ان بانا بهته يختار حياة الملك الخاصة، بل المراحل البدائية منها، و مع هذا فإن هرش شرترا معدن للمعلومات عن هذا الملك و زمانه مع عدم اتساع مثل هذا الاطار، و الواقع أن اللغة السنسكريتية لغة تستطيع تحميل معان كثيرة في جمل قليلة، و هذا نظراً إلى خصائص هذه اللغة من جهة القواعد المحكمة، فبنية القواعد لهذه

الـلـغـة و الـدلالات البالـغة لمفرداتها تملك من الكفاءة ما يخلق جوامع الكلم من غـير إيهام كريه أو غموض بغيض. و لا شك فإن بانا بهته كان خبيراً لأسرار هذه اللـغة و خفاياها البيانية، إذ استخدم لغة تتميز بمثل هذه الميزات التي ربما لا يتفطن لها الكاتب العادي، و بذلك تمكنت لغته من التعبير عن معانى و معلومات جمـة فـي كـلـمات قليلة و التي لا يسع كاتباً آخر لمعالجتها إلا أن يورد تفاصيل كـبـيـرة، و فـي الـوقـت نـفـسـه نجد الكاتب يثرى الكتاب بالمعلومات التاريخية و الـنـسـيـج الـخـران و أنـواع من الـبـدائـع و الصنائع الشعرية ما يجعل السيرة قطعة رائعة من الفن الأصيل.

و الـصـنـف الـثـانـي من النثر الأدبي لهذا العصر يسمى "كتها" (القصة)، و هـذا الـصـنـف مـؤسـس على الخيال، و الخيال إما أن يصدر من حادث وقع في حـيـاة الـكـاتـب نـفـسـه، أو من واقـع مـعـاصر أو تاريخي محض، و أهمية هذا الـمـصـدر تـتـلاشـى، إذ الـمـقـصـود هو الجمال الفنى و المعنويات الموضوعية لـلتمثيل، و هذه المعنويات مستقاة من ينبوع الحياة: تموجات و تفتحات جديدة لـنـفـسـية الإنسان، و من أبرز الأمثلة لمثل هذا النثر الأدبي: "داسا كمار شرترا" لـدنـدى، و "واسوادتا" لسوبندهو و "كادم برى" لبانا بهته، إن "داسا كمار شرترا" يمثل سيرة: عشرة أبناء الملوك و على رأسهم "راجه واهنه" و نخبة أبناء الملوك هـذه أسوء الـنـمـاذج لـلغدر و الخيانة و المكر و الخداع، و هم يسردون تفاصيل مـغـامـراتـهـم بـصـراحة أمام هذا البطل، و بذلك فإن "داسا كمار شرترا" قصة الـحـب الإباحـى بـأنواع من الحيل و الهزل و الهجاء، و الواقع أن هذا صنف أدبي مـسـتـقل بذاته، له خطوط و ملامحه المعروفة في اللغة السنسكريتية، و أسهم فـيـه عـديـد من الـكـتـاب الـسـنـسـكـريـتـيين، أما لغة هذا الصنف الأدبي (النثر الـغـرامـي؟) فخير كلمة تصفها هي: السهل الممتنع، و ينهال الثناء على الكاتب

السنسكريتي الشهير كالى داسا بأنه أوجد أسلوباً يحسن استخدام التشبيه و الاستعارة و المجاز، كما يثنى على الكاتب "بهراوى" (Bharavi) لجزالة اسلوبه، و لكن الكاتب داندى يُثنى عليه لروعة تراكيبه البيانية، و الجدير بالملاحظة هنا أن الكاتبين الأولين يمثلان الكلام الموزون، بينما نجد هذا الأخير ينتج النثر، و بذلك يمكن أن تقدر قمة الروعة البيانية التي تمثلت في فنه.

أما الكاتب سوبندهو و عمله الشهير "واسا وادتا" فقصة خيالية محضة، قصة ابن ملك إسمه "كندار بكاتو" يسافر مع صديق له إسمه "مكراندا" للبحث عن عشيقة مجهولة، و بينما هو يستريحان تحت شجرة في الليل على جبال "وندهيا" يتنبه ابن الملك إلى حوار بين ببغائين، و يفيد هذا الحوار الدائر بينهما أن الأميرة "واساوادتا" أرسلت ببغاءها "تماليكا" للبحث عن المكان الذي فيه الأمير "كنداربكاتو" الذي اعجبت به و عشقته إثر ما لمحت به في منام، و لأجل أن أباها كان يريد أن يزوجها برجل آخر، لم يكن لها إلا ان تفر مع حبيب روحها على جواد سحرى، و حينما وصلت الأميرة إلى جبال "وندهيا" اختطفها رجلان من بنى كيراتا، و كان الأمير نائماً آنذاك، ثم إن هذين الكيراتين بدأ يختصمان: أيهما يأخذها خصيصاً له؟ و ادت المخاصمة إلى الملاكمة و القتال، و انتهزت الأميرة هذه الفرصة، فتسللت من هذا الموقع، إلا ان مصيبة أخرى كانت تترقبها، إذ اصطدمت براهب هندوكي، و هذا الراهن الخشن لعنها و دعا عليها بأن تتحول إلى حجر، فتحجرت الأميرة، و بعد مدة من الزمن يمر الأمير "كنداربكاتو" بهذا المكان في البحث عن الأميرة نفسها، و قدمه يلامس ذلك الحجر (الأميرة في الحقيقة) فيذهب أثر اللعنة، و تستعيد الأميرة صورتها الحقيقية، و بذلك يظفران بغايتها المنشودة.

و لا شك، فهذه قصة خيالية، و هذا واضح من طبيعة القصة نفسها و نسيجها الخيالي و ملابساتها غير الطبيعية، و لكن مع ذلك كله نجد القصة تحتل اهمية كبيرة بين القصص الغرامية، و هذا راجع إلى الميزات البيانية و تفاصيل المغامرة الشيقة و روعة الأسلوب التي امتاز بها الكاتب سوبندهو من بين الكتاب في اللغة السنسكريتية.

و لكن اروع إنتاج أدبي من هذا الصنف هو عمل الكاتب بانا بهته المسمى: "كادم برى"، قصة غرامية شهيرة. و بطل القصة هو "كاندرا بيدا" من مدينة اجين، و البطلة أميرة من أسرة غندهروا الملكية، بجنب غرام آخر يضم "بونداريكا" و "مهاسويتا" أما بيت كادم برى ففي مكان وراء جبال هملايا، حيث يسكن الغندهرويون و الكينسيون، بينما عاصمة كندرا بيدا هي مدينة أجين، اما الببغاء التي تقص علينا تفاصيل هذا الحب و الغرام فهي تسكن في الغابات الكثيفة في منطقة "وندهيا" الجبلية، و بذلك يجد الكاتب مجالاً واسعاً امامه لنسج ادوار القصة و سرد تفاصيلها الخارجية و الداخلية، و قد استطاع الكاتب أن يمثل امامنا معالم مدينة أجين و آثارها الخالدة، بجنب المناظر الرهيبة لغابات وندهيا و جمال وادى هملايا الساحر، بأسلوب خلاب يدهش القارئ، إذ أنه استطاع أن يخلق عبر النثر ما لا يخلق عادة إلا بالشعر، و الحق أن نجاح الكاتب بانا بهته في عمله هذا لا يرجع إلى معالجته للقصة أو تمثيل ابطالها، و إنما يرجع إلى الوضوح و الجلاء الذي تتميز به تفاصيل القصة الدقيقة، فهو يسبر أغوار التفاصيل الدقيقة في وصف العواطف و الحب و الغرام و الحيرة و الاضطراب و الطمانينة و ما إلى ذلك من الكيفيات التي تغمر صريع الهوى و الهيام و في هذه العملية الرهيبة نجد اللغة تساير الكاتب بصدق و إخلاص كبير، و لعل بانا بهته اكبر كاتب في اللغة السنسكريتية، ربما يفوق كالى داسا

في بعض الجوانب، و فيه لا في غيره نجد نموذجاً حياً لمدى الكمال الذي يستطيع أن يحققه النثر في التعبير عن موضوع شعري، بل الحق أن "كادم برى" نموذج للسهل الممتنع من النثر، أو الشعر العظيم المتحرر من تقييدات الوزن و القافية.

"كادم برى" لبانا بهته شجرة أدبية كثيرة الأغصان، كثيفة الظلال، لذيذة الثمار لمن يسكنون إليها، و فيها من القوة السحرية ما يحيّر القاريء، و من الميزات البيانية ما يأسر الكتاب المنتجين، فينجرفون في تيارها، و لا يملكون إلا الطواف حولها و لثم عتبتها، و الفذاذة جوهرتها النيرة، و مهما كان الإنتاج الادبي أو الفني عظيماً و رهيباً، فهو يفقد عظمته إذا أمكن الاحتذاء بحذوه، أو التقليد في قالبه أو روحه، و هذا يصدق تماماً بالنسبة للكتابات النثرية المتأخرة في اللغة السنسكريتية، هاك أعمال مثل "تلك منجرى" لدهانا بالا في القرن العاشر الميلادي، و "أردى سندرى كتها" لسدهالا في القرن الحادى عشر الميلادي، و "جاديا جنتا منى" لويدى بهاسما في القرن الثاني عشر الميلادي، و "جاديا كارنم ريتا" لوبياشكو ورتي في القرن الثالث عشر، و "رانا راينا شرترا" لوامانا في القرن الخامس عشر الميلادي أعمال نثرية مهمة بعد عهد بانا بهته، و كلها محاولات لاحتذاء حذوه في المواد و الصياغة الفنية، و لكنها لا تبلغ إلى قمة الفن ـ مادةً و صياغةً و هندسة فنية ـ التي تمثلها كتابات بانا بهته، و بالتالي لا تخدم غرضاً سوى التعليم و الوعظ، و السبب البسيط لسقوط النثر الشعري في اللغة السنسكريتية هو التأثير البالغ لبانا بهته و عمله "كادم برى" على الأدباء المتأخرين الذين لم يفكروا إلا في الاحتذاء بحذوه، و بذلك فقدوا حريتهم الفكرية و أصالتهم الفنية و لم يستطيعوا أن يطرقوا الموضوعات الجديدة بالأساليب المبتكرة، و لا شك فإن هذه حقيقة مؤلمة، و هي تؤلم الباحث و المؤرخ و القاريء على السواء، و لكن أ ليس السقوط يتلوه النهوض؟

اليس الفجر يتلو الغسق؟ فقد برغ هذا الفجر في الآداب السنسكريتية ـ بعد غسق ساد إثنى عشر قرناً ـ في العصر الحديث، و استيقظت المؤهلات بعد سبات طويل، و أدرك العلماء و الادباء و الباحثون ان لهذه اللغة آفاقاً لم تجب و إمكانيات لم تتحقق بعد، و يتسع رجالها لاي موضوع او مادة عملية او ادبية او فلسفية، قديمة أو حديثة، و تمخض هذا الوعى عن تجارب مبتكرة في موضوعات منوعة من خلال المائة و الخمسين عام الماضية، و كلها بنجاح لاباس به في معالجة الأساليب الحديثة، و الأدب الانكليزي و الأفكار الحديثة نفخت روحاً جديدةً في اللغة السنسكريتية القديمة في هذا المجال، و ادى هذا الاحتكاك إلى بروغ هذه العبقرية اللسانية التي تنتمى إلى اصل مزدوج: هندي ـ اوروبي، بعد سبات طويل استغرق أكثر من الف عام، فبدأت اللغة السنسكريتية تلتقط الأمثال و الأساليب الحديثة، و بدات تسعى سعياً حثيثاً نحو معالجة الموضوعات الحديثة ما أدى إلى معطيات لم نكن نحلم بها قبل، و بجنب الانواع المحدثة من الشعر و التمثيل نجد هناك أنواعاً مبتكرة من القصص و الرحلات وغيرها، و بخصوص بعد استقلال الهند من الاستعمار الانكليزي، و هذا النثر يتجه الآن نحو تبسيط الأسلوب و تجنب الجمل و التراكيب الطويلة و إهمال القواعد التقليدية لخلق التناغم الصوتي بين الكلمات، فيبتعد كل البعد عن التراكيب المضطربة و يكثر من استخدام الفعل المعروف، و لم يبق المجال متسعاً للحرص الزائد للتعبير الموشح و النثر المزخرف.



الهند و الهنود في نظر المسعودي

بقلم: أ. د. كفيل احمد القاسمي

يرجع تاريخ العلاقات بين العرب و الهند إلى عصور بعيدة جداً و الصلات التجارية التي كانت قائمة بين الهند و العالم العربي نتج عنها آثار ثقافية إلا أن هذه كانت ذات قدر ضئيل. و في الحقيقة "العلاقات الثقافية المباشرة و العميقة بينهما بدات بعد ظهور الإسلام بقرن واحد، و ذلك لما أصبحت بغداد مقر الخلافة الإسلامية في أواسط القرن الثاني. و قد افتتحت هذه الفترة عهدا طويلا من الاتصال الثقافي دام بضعة قرون. و لعله لم تكن اية فترة في تاريخ العرب و الهنود في العصور القديمة أو الوسطى، كانت العلاقات اكبر ارتباطا بين الشعبين مما كانت في هذه الفترة. و قد كانت عملية الاتصال متبادلة، و قد شملت اشاعة أكبر قسط من المعرفة في العلوم و الآداب و الدين و الفلسفة و الآراء الاجتماعية و الثقافية و القيم المرتبطة بها و نشرها."(١)

و أما عصر المسعودي (٢٨٧ ـ ٣٤٦هـ) فقد شهد فيه العالم الإسلامي نشاطا ثقافيا، بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية و خاصة من اليونانية و الفارسية و الهندية، إلى العربية. و نضجت ملكات المسلمين انفسهم في البحث و التأليف و تشجيع الخلفاء و السلاطين في مشارق الأرض و مغاربها، و المسعودي بعد أن نهل العلوم من منابعها المختلفة في بغداد و قرر أن يرحل

إلى البلاد المختلفة، عربية و غير عربية، ليستمد المزيد من المعارف من مشاهداته، و يلتقى بالثقافات المختلفة وجها لوجهه بعد ان التقى بها في متون الكتب و ليلمس بنفسه صورا من حياة الشعوب، و يرى الوانا من الحضارات. و رحلاته تختلف تماما عن رحلات من سبقه من الرحالة، فقد كانت طليعة رواد العرب تتألف من تجار يسيحون للتجارة، و كان يعوز هؤلاء الاستعداد الضروري للتامل العلمي، و إن لم تخل رحلاتهم التجارية من طرائف مفيدة في بعض الاحيان. قضى المسعودي خمسا و عشرين سنة من عمره في رحلات متصلة، فجاب معظم ارجاء العالم القديم و تعرض لكثير من الأخطار و المغامرات، و جمع كثيرا من المعلومات و الاخبار دوّنها في كتبه العديدة، التي ادت إلى تطور الدراسات الجغرافية و التاريخية و الاجتماعية و الاقتصادية.

بدأ المسعودي رحلاته في سنة ٣٠٩هـ فغادر بغداد و طاف ببلاد فارس و كرمان و استقر فترة في اصطخر و في السنة التالية اى ٣١٠هـ تجول بين مدن الهند المختلفة مثلا ملتان و المنصورة، كنباية، صيمور و استقر فترة في بومباى، ثم رحل إلى جزيرة سيلان و منها ركب سفينة إلى بلاد الصين و جاب المحيط الهندي و زار جزائره و خاصة مدغاسكر و زنجبار، ثم عاد في نهاية رحلته إلى عمان كما زار جميع مدن الشام و مصر. و هو من الرحالة القلائل الذين امدونا بمعلومات وافية عن بلاد الهند. فيصف ارض الهند و جبالها و انهارها و عقول اهلها و سياسة اهل الهند و حكمتهم و كذلك يصف الوانهم و صفاتهم و صحة امزجتهم و صفاء اذهانهم و دقة نظرهم. و لم يعتمد على الروايات السماعية فقط التي اعتمد عليها من سبقه من المؤرخين، بل اعتمد على المشاهدة. فقد كان شاهدا عيانا لكل الاماكن و الشعوب. و صنف عشرات من الكتب حول اخبار رحلاته و مشاهداته و تجاربه و لكن معظم مؤلفاته كان

مـصـيـرها للأسف الضياع و لا نجد بين أيدينا سوى الجزء الأول من أخبار الزمان و الأوسـط، و الـتـنـبـيه و الاشراف و مروج الذهب و كتاب أخبار الزمان كان يضم ثـلاثين مجلدا و لم يبق منه حتى اليوم سوى جزء واحد. و قد أشار المسعودي إلى كـتـابـه هـذا كـثـيرا في مروج الذهب فكان اذا اختصر الكلام في باب من أبواب مـروج الذهب قال "و قد فصلنا ذلك في كتابنا أخبار الزمان". و كتاب الأوسط هو وسـط بـين كـتاب أخبار الزمان و كتاب مروج الذهب و قد ضاع هذا الكتاب أيضا و لـكن فـي مـكـتبة أكسفورد نسخة يرى البعض أنها كتاب المسعودي كما يظن بـعـض الـبـاحـثـين أنـه تـوجد في بعض دور الكتب في دمشق بعض أجزاء هذا الكتاب و إن كان من العسير الجزم بذلك.

و فـي كـتـابـه الـتـنـبيه و الاشراف جمع المؤلف ألوانا متعددة متنوعة من الـثقافات و العلوم و لـخص فيه آراءه في فلسفة التاريخ و وصف صورا من الكون و تـحـدث عن آراء الـفـلاسـفة و العلاقة بين كل من الحيوان و النبات و المعادن، و نجد في الكتاب صورا تاريخية إسلامية و صورا جغرافية. و كتاب مروج الذهب و مـعـادن الـجـواهـر من أعـظـم كـتبه و من أبرز المصنفات العربية فهو دراسة تاريخية جغرافية ربط فيها المسعودي بين الزمان و المكان "إنه تحدث فيه عن الـتـاريخ و أخـبار العالم و ما مضى في أكناف الزمان من أخبار الأنبياء و الملوك و سيرها و الأمم و مساكنها.

لا يمكن هنا احصاء جميع الأشياء التي ذكرها المؤلف عن الهند و لكن نذكر بـعـض الأشـيـاء الـهـامـة يـعـطينا صورة واضحة عن الهند في عيون العرب في العصور الوسطى.

الحدود و المساحة للهند:

فقد ذكر المسعودي في بحث الاقاليم السبعة عن الهند بقوله "فالاقليم الأول الهند ... فحد الأقليم الأول البحر مما يلي المشرق و الثاني البحر مما يلي الحجاز و الثالث الديبل من ساحل المنصورة من أرض السند و الرابع حد فالاقليم السابع مما يلي الصين. أطول ساعات نهاره ثلاث عشرة ساعة". (٢)

ارض الهنـــــــــــد:

و يصف ارض الهند في كتابه مروج الذهب بقوله "لأن بحر الهند و الصين في مقره اللولوء و في جباله الجواهر و معادن الذهب و الفضة و الرصاص القلعي و في أفواه دوابه العاج و من منابته الابنوس و الخيزران و القنا و الساج و العود و اشجار الكافور و الجوز و القرنفل و الصندل و انواع الطيب و العنبر و الببغاء و الطواويس و النعامة و حشرات الأرض ...." (٣) و يقول في نفس الكتاب "الزمرد من الهند و السند و نحو كنباية .... يلحق بما وصفناه من النور و الخضرة الجواهر المكي يحمل من أرض الهند فاشتهر باسم مكة. (٤)

الانهــــــــــار:

يتكلم المسعودي عن انهار الهند و يذكر مخرج نهر مهـــران السند بقوله "و مخرجه من الاقليم الخامس من عيون في اعالي السند و جبالها من ارض قنوج من مملكة بورة (بهوج راج) و أرض قشمير و القندهار و الطافن (دكن) حتى ينتهي إلى مدينة المولتان .... و قد ذكر ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في الأخبار عن الامصار و عجائب البلدان: إن مخرج مهران السند و النيل من موضع واحد، و استدل على ذلك باتفاق زيادتهما و كون التمساح فيهما و إن سبيل زراعتهم في البلدين واحد، و لا ادري كيف ذلك وقع له". (٥)

و أورد ذكر جنجس بقوله "و منها نهر الهند المعروف بجنجس و هو أعظم من مهران و عليه مساكن كثير من الامم من أصناف الهند وغيرهم، و مخرجه من جبل بناحية التبت لا عمارة بينه و بين التبت إلى ان يصب في هذا البحر مما يلي الجزيرة المعروفة بجزيرة العراة من جزائر الهند، فمسافته من ابتدائه إلى انتهائه أربع مائة فرسخ و قيل خمس مائة فرسخ، و على هذا النهر كان التقاء الاسكندر وفور ملك الهند، لا تناكر بين الهند في ذلك" (٦).

لغات أهل الهند:

و يورد في ذكر الأمم السبع في سالف الزمان، ذكر أهل الهند و يضع الهنود في الأمة السادسة و يصف "ان لغتهم واحدة و ملكهم واحد". (٧) و كذا يقول في موضع آخر "الهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان و السند إلى أرض التبت و بين هذه الممالك تباين و حروب و لغاتهم مختلفة و آرائهم غير متفقة". (٨)

الشهور و السنة:

و في ذكر جمل من الكلام في سنى الأمم و شهورها يكتب "جميع ما تؤرخ به الأمم من السنين شمسية و على ذلك سائرهم من السريانيين و الفرس و اليونانيين و الروم و القبط و الهند و الصين، إلّا العرب و الاسرائليين. و مقدار سنتهم الشمسية من الزمان ثلاثمائة و خمسة و ستون يوما و ربع يوم، و على التحقيق و جزء من ثلاثمائة جزء من يوم، و مراعاتهم في ذلك ابتداء سير الشمس من نقطة الاعتدال الربيعي إلى عودها إليها و هم مجمعون على أن شهور سنتهم اثنا عشر شهرا، و إن كانت عدتها مختلفة و لذلك احتاجو إلى كبس أيام لتتمة مدة السنة. (٩)

و يـنكـر عن دوران الـشـمـس و الاوج و مـا ذهـب إليه الهند وغيرها من أن الاوج يـتـحـرك فـي مـائة سنة درجة واحدة، فيكون مقامه في كل برج ثلاثة آلاف سـنة و قطعه الفلك في ستة و ثلاثين الف سنة. و كيفية تنقله و دورانه إذا انتقل عن البروج الشمالية إلى الجنوبية انتقلت العمارة فصار الشمال جنوبا و الجنوب شـمـالا و الـعـامـر غـامـرا و الـغـامـر عـامـرا، و إنـه لا خـلاف بـين حكماء الهند و الـكـلـدانـيـين و المصريين و الروم و اليونانيين وغيرهم، و بين منجمي عصرنا و فـلـكـيـة وقـتنا إنه في برج الـجوزاء، و إنما التنازع بينهم في ثباته و تنقله على ماذكرنا". (١٠)

المعابـــــــــــد:

كما نعرف أن الهند زاخرة بالديانات و الاتجاهات الروحية المختلفة، و هي تـربـة خصبة لنمو الأفكار الدينية، و المذاهب الفكرية تكثر فيها الاديان و الملل و تـتـنوع فيها المذاهب و النحل و كذا المعابد لأهل الأديان المختلفـــة فيقول "و من مـعـابـدهـم البيت الثالث يدعى سندوساب ببلاد الهند و هذا البيت تعظمه الـهـنـد و لـه قـرابـين تـقرب إليه و فيه أحجار مغناطيس الجانبة و الدافعة من أوصـاف لا يـسـعنا الأخبار عنها فمن اراد أن يبحث عن ذكرها فليبحث فإنه بيت مـشـهور ببلاد الهند" (١١). و يذكر في كتاب آخر "و بأعالي الهند و مشارقها البيت الـمـعـروف بـبيت الذهب بدء تاريخهم بعد ظهور البدء الاول فيهم و هو اثنا عشر الـف عام مضروبة في ثلاثة و ثلاثين الف عام و هو البيت الذي دخله الاسكندر بن فـيلبس الملك حين قتل فور ملكهم و كتب يخبره إلى ارسطاطاليس و ما شاهد منه العجائب" (١٢).

الشعب و الحكومـــــة:

يـذكـر الـمـسـعودي عن اهل الهند و يقول "إن الهند كانت في قديم الزمان

الفرقة التي فيها الصلاح و الحكمة و إنه لما تجيلت الأجيال حاولت الهند ان تضم المملكة و تستولى على الحوزة و تكون الرياسة فيها ... و نصبت لها ملكا و هو البرهمن الاكبر الملك الأعظم و الإمام فيها المقدم، ظهرت في أيامه الحكمة و تقدمت العلماء و استخرجوا الحديد من المعادن و ضربت في أيامه السيوف و الخناجر و كثير من أنواع المقاتل و شيدت الهياكل و رصعها بالجواهر المشرفة ... فكان ملك البرهمن إلى ان هلك ثلث مائة سنة و ستين سنة و ولده يعرفون بالبراهمة إلى وقتنا هذا، و الهند تعظمهم و هم أعلى أجناسهم و اشرفهم لا يتغذون بشيء من الحيوان، و في رقاب الرجال و النساء منهم خيوط صفر متقلدين بها حمائل السيوف فوزا بينهم و بين غيرهم من أنواع الهند. و لما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعا شديدا و فزعت إلى نصب ملك عليها من اكبر ولده و كان ولى عهد ابيه و الموصى إليه من ولده و هو الباهود ... قدم الحكماء و زاد في مراتبهم و حثهم على تعليم الحكمة و بعثهم على طلبها ... و في أيامه عملت النرد و أحدث اللعب بها و جعل ذلك مثلاً للمكاسب، ثم ملك زامان بعد الباهود فكان ملكه نحوا من خمسين و مائة سنة و لزامان سير و أخبار و حروب مع ملوك فارس و ملوك الصين ... ثم ملك بعده فور هو الذي واقعه الاسكندر فقتله ... ثم ملك بعد دبشليم و هو الواضع لكتاب كليلة و دمنة الذي نقله ابن المقفع ... ثم ملك بعده بلهيت وضعت في أيامه الشطرنج .. ثم ملك كورش فاحدث للهند آراء في الديانات على حساب ما رأى من صلاح الوقت و خرج من مذهب من سلف و كان في مملكته و عصره سندباد ... فلما هلك اختلفت الهند في آرائها فتخربت الأحزاب و تجيلت الأجيال و انفرد كل رئيس بناحيته فتملك على أرض قنوج ملك و على ارض القشمير ملك و تملك على مدينة المانكير (مهانكر) ملك. و أرض الهند أرض واسعة في البر و البحر

و الجبال و ملكهم متصل بملك الزانج (جاوا) ... و الهند في عقولهم و سياساتهم و حكمتهم و صحة أمزجتهم و صفاء الوانهم بخلاف سائر السودان من الزنوج و الدمادم و سائر الأجناس. (١٣)

"و الهند لا تملك الملك عليها حتى يبلغ من عمره اربعين سنة و لا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا في كل برهة من الزمان معلومة و يكون ظهورها للنظر في أمور الرعية لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكهم دائما اسقاطا لهيبتها و استخفافا بحقها... و الهند تمنع من شرب الخمر و تصيب شاربه لا على طريقة التدين لكن تنزها عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها و يزيلها و ربما يسمعون السماع و الملاهي و لهم ضروب من الآلات المطربة تفعل في الناس افعالا مرتبة من ضحك و بكاء ... و أعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهري صاحب مدينة المانكير و اكثر ملوك الهند تتوجه في صلاتها نحوه و تصلي لرسله ... و رايت ببلاد كنباية أرض الهند و هي المدينة التي يضاف إليها النعال الكنبايتية الصرارة و فيها تعمل ... و الملك يومئذ بانيا و كان برهمانيا من قبل البلهري صاحب المانكير. (١٤)

علاقات الهند مع الجوار:

كان للهند علاقة مع ملوك الفرس الثانية و هم الساسانية و يذكر أن اردشير بعث رسالته إلى ملك الهند و هو يخبر عن اردشير و حاله و يعتذر عنه مما فعل في ملكه من امور احدثها في الدين و الملك، لم تعهد لأحد من الملوك قبله، و إن ذلك هو الصلاح لما توجبه الأحوال في ذلك الزمان". (١٥)

و قد حضر المسعودي في بلاد صيمور من أرض الأرمن مملكة البلهرى في سنة أربع و ثلث مائة و الملك يومئذ على صيمور المعروف بجانج و بها

و يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف ... و كان الملك يعيّن على المسلمين رجلا من روسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه و معنى البياسرة يراد به الذين ولدوا من المسلمين بأرض الهند يدعون بهذا الإسم واحد و احدهم بيسر. (١٦)

الطوفـــان:

و في ذكر تاريخ الأمم يقدم راى الهنود عن الطوفان و أهل الهند و الصين و من وافقهم من الأمم ممن قال بقدم العالم و ازليته فيابون كون الطوفان عم جميع الأرض و ما ذكر من تبلبل الألسن، و تواريخهم موضوعة على سوالف ملوكهم و احداث عظيمة كان في ايامهم يبعد عليه الوصف. (١٧)

طيب الهنـــد:

و أصول الطيب خمسة أصناف المسك و الكافور، و العود و العنبر و الزعفران كلها تحمل من ارض الهند و ما اتصل إلا الزعفران و العنبر و يوجد بارض الزنج و الشجر و الاندلس ايضا. (١٨)

و الهنود يمضغون ورق التانبول و حب الفوفل، و ورق التانبول ينبت في بلادهم و هذا إذا ما مضغ على ما ذكرنا الورق و النور اشد اللثة و قوى عمود الأسنان و طيب النكهة و أزال الرطوبة الهونية و شهي الطعام. (١٩)

الخضـــاب:

الخضاب الأسود المعروف بالهندي و هو الخضاب الذي يلمع سواده فيها يظهر من أصول الشعر بصبغه سواد و لا يتصل منه شيء و إن هشام بن عبد الملك كان يخضب بهذا الخضاب. (٢٠)

الاشجـــــار:

و هـو يـذكـر ايـضـا شـجـر الـنارنج و الاترج المدور من الهند فهذه الاشياء زرعـت بـعـمـان و بـصـرة و العراق و الشام و لكن الحمرة الطيبة و اللون الحسن الذي يوجد بأرض الهند زال لعدم ذلك الهواء و التربة و الماء و خاصية البلاد. (٢١)

الحيوانـــــات:

و من الـحيوانات يذكر الطواويس بارض الهند و الفيل و الكركدن و الببغاء و النعامة و حشرات الأرض. (٢٢)

تعذيب النفس و الموتى:

و لـلـهـنـد اخـبـار عـجـيـبـة تـجزع من سماعها النفوس و انواع من الالام و الـمـقـاتـل تـالـم عند ذكرها الأبدان و قد اورد المؤلف على كثير من الأخبار في كـتابه اخبار الزمان، و لكن من الأسف ان الكتاب ليس بموجود بين ايدينا. و لكنه يـقـول فـي مـروج الـذهـب اشارة إلى هذا "إن الهند تعذب انفسها على ما وصفنا بـانـواع الالام، و قـد تـيـقـنـت إن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلا هو ما اسـلـفـتـه و عـذبت به انفسها في هذه الدار معجلاً ... و منهم من يصير إلى باب الملك فيستأذن في احراقه لنفسه ثم يدور في الأسواق ..."(٢٣)

"و يحرقون موتاهم و دوابهم و الالة و الحلية و إذا مات الرجل احرقت معه إمـراته و هي في الحياة، و إن. اتت المراة لم يحرق الرجل .... إلا ان الهند ليس من شانها ان تحرق المراة مع زوجها إلا ان ترى المراة ذلك". (٢٤)

فـهـذه الـكـلـمـة الـوجيزة تعطينا صورة واضحة عن العلاقات بين العرب و الهند و قد تولد عن تبادل التجارة بين البلدين قيام صلات ثقافية و تبادل بينهما

في الآراء و تغلبت روح المغامرة على فريق من الجانبين فقاموا ينشدون زيارة البلد الآخر و استطاعوا أن يقتبسوا خير ما رأوه فيه و زبدة ما أفادوه منه من علم و حكمة. و في خلال العصر الذهبي من تاريخ الإسلام أي في القرنين التاسع و العاشر الميلاديين، بلغت العلاقات بين الهند و البلاد العربية مبلغا توثقت فيه الصلات بين العلماء و المفكرين.

الهوامش:

١ ـ العلاقات العربية الهندية: مقبول احمد ص ١٧ ـ ١٨ طبع بيروت ١٩٧٤م.

٢ ـ التنبيه و الاشراف تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي ص ٢٩ طبع القاهرة ١٩٣٨م.

٣ ـ مروج الذهب ٣: ٥٦ ـ ٥٧

٤ ـ نفس المصدر ٣: ٤٨

٥ ـ التنبيه و الاشراف ص ٤٩

٦ ـ نفس المصدر ص ٥٠ و راجع أيضا مروج الذهب ١: ٦١

٧ ـ نفس المصدر ص ٧٣

٨ ـ مروج الذهب ١: ١٦٣

٩ ـ التنبيه و الاشراف ص ١٨٣

١٠ ـ نفس المصدر ص ١٩٠

١١ ـ مروج الذهب ٢: ١٣٦

١٢ ـ التنبيه و الاشراف ص ١٧١

١٣ ـ مروج الذهب ١ : ١٥٤ ـ ١٦٣

١٤ ـ نفس المصدر ١ : ١٦٩ ـ ١٧٧ و ٢٣٩، ٢٨٩

١٥ ـ التنبيه و الاشراف ص ٨٧

١٦ ـ مروج الذهب ٢ : ٨٦

١٧ ـ التنبيه و الاشراف ص ١٧١

١٨ ـ مروج الذهب ١ : ٣٩١

١٩ ـ نفس المصدر ٢: ٨٤ ـ ٨٥

٢٠ ـ مروج الذهب ٢: ٢٠٣

٢١ ـ نفس المصدر ٢ : ٢٣٩

٢٢ ـ نفس المصدر ٢: ٢٣٩ و ٣: ٥٦ ـ ٥٧

٢٣ ـ مروج الذهب ٢: ٨٤ ـ ٨٥

٢ ـ نفس المصدر ٢: ٩ ـ ١٠



الأمير صديق حسن خان

بقلم: أ. د. سيد محمد اجتباء الندوي

بلادنا الهند من اقدم بلاد الله في الأرض و أعرقها في تقديم نماذج علمية و حضارية و اجتماعية سار بها الركبان و تغنى بها الرجال و الفرسان و اهتزبها الشاب و الفتيان، و ازدادت علما و فضلا و حضارة و مدنية بعد أن تشرفت بالإسلام و مآثره و مكارمه و تعاليمه و حضارته. فانجبت شخصيات مثلت دورا حيويا كبيراً منها صاحبنا العالم المفكر الموسوعي الجليل الأمير صديق حسن خان الذي قل نظيره علما و فضلا و انتاجاً و تاليفاً، فقد جمع الأمير بين الدولتين: دولة الحكم و تسيير دفة الإمارة أو المساهمة فيها، و دولة العلم و التعليم و الخدمات العلمية و الحضارية، فقد كانت مساهمته في المعارف الإسلامية و الأدبية عظيمة و ضخمة لا نقدر على احصاءها بهذه العجالة أو في الوقت القصير.

ولد الأمير ببلدة بانس بريلى في ولاية اترا برديش في بيت جده لأمه في سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م) (١) و انتقلت به أمه إلى مدينة قنوج حيث كان والده يقيم، و كان قد سُر بنبأ مولده، فكان يحن إلى رؤيته، و كان الوالد الشيخ اولاد حسن عالما تقيا مجاهداً بايع امير المؤمنين سيد احمد الشهيد رحمه الله و سار على خطاه، و لكن الأمير صديق حسن لم يحظ بكفالة أبيه و رعايته إلا خمسة اعوام فحسب كما ذكره بنفسه:

"ولدت في ١٩/ جمادى الأولى سنة ١٢٤٨هـ و انتقل ابي إلى رحمة ربه في سنة ١٢٥٣هـ فربتني أمي، و قامت بتعليمى و تربيتي خير قيام" (٢).

و كان الأمير يذكر مسقط راسه "بانس بريلى" كثيراً و ينشد:

بلاد بها حل الزمان تمائمــى   و اول ارض مس جلدى ترابها

تولت الأم الحنون بعد وفاو ابيه سنة ١٢٥٣هـ تعليمه و تربيته و وجهته توجيهها اسلاميا قويما، و كانت عالمة متثقفة حكيمة مدبرة، يقول الأمير عن اسلوب تعليمها و تربيتها:

"كنت في السابعة من عمرى، و كان المسجد قريبا من بيتي، حينما يؤذن لصلاة الفجر و أنا في سبات عميق هادي، كانت أمي ـ رحمها الله ـ توقظني و توضئني و تبعثني إلى المسجد، و لا تتركني. بان اصلى في البيت، و إن لم اقم من نومي ترش الماء على وجهي" (٣)

هكذا تلقى الأمير منذ طفولته تربية دينية صالحة فلم يتقاصر عن واجباته الدينية طوال حياته، و لم يزعزع عقيدته و طريقته المنصب الحكومي و الجاه الدنيوي و الصيت العالمي فيما بعد.

ارسلته امه منذ صباه إلى كتاب البلد، تلقى دراسته الابتدائية فيه، و قرا بعض الكتب البدائية على شقيقة الاكبر الشيخ احمد حسن، ثم سافر إلى بلدة فرخ آباد و كانبور و قرا على علمائها، و سمع عن دهلى العاصمة مركز العلم و منبع الثقافة و الحكمة، فساقه الشوق و الشغف بالعلم إلى العاصمة، و قرا على علماءها و استفاد من رجال بيت الامام ولى الله الدهلوى و تتلمذ خاصة المفتى صدر الدين خان بهادر صدر الافاضل ـ مفتى القارة الهندية آنذاك ـ قرا الامير علوم الحديث على الشيخ زين العابدين بن محسن اليماني

(١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) و الشيخ عبد الحق البنارسي المحدث تلميذ الامام الشوكاني (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م).

و لما اتم سنتين كاملتين في دهلى استأذن أستاذه المفتي صدر الدين للعودة إلى الوطن، فمنحه اجازة بخط يده، و قد انتفع الأمير كثيرا باقامته في دهلي، بحضوره حلقات الدرس و مجالس العلم و الادب و الشعر، و كان يذكر دائماً هذه الحلقات و المجالس و النوادى و يهتز ويتغنى:

سقى الله وقتا كنت اخلو بوجهكم　　و ثغر الهوى في روضة الأنس ضاحك

أقمنا زماناً و العيون قريرة　　و أصبحت يوماً و الجنون سواكب

عاد الأمير بعد عامين من دهلى، و هو غزير العلم، عميق الدراسة، واسع الاطلاع، خصب الفكر، عالى الهمة، بجنب نكاء و قاد، و ذاكرة قوية، خطط لنفسه أعمالاً علمية و خدمات دينية و اجتماعية، و خطة رسائل و مؤلفات ولكن ظروف البيت الاقتصادية كانت سئية جداً، كان أخوه الأكبر الشيخ احمد حسن العرشي بعيداً عن البيت لم يقدر على نيل وظيفة تفى بحوائج البيت، فشعر بمسئولية نحو العائلة و كان عمره آنذاك واحداً و عشرين عاماً. نكر هذا الوضع المؤلم في كتابه "روض الخضيب ص ١٦٤" و "ابقاء المنن ص ٦"، و أراد أن يخرج من بلده قنوج عملا بقوله عزوجل: (فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه).

فسافر في شهر رجب سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م إلى إمارة بهوبال التي سمع عنها كثيرا من جاره "محمدى" و استطاع بواسطة (مدار المهام) رئيس وزراء الامارة الشيخ جمال الدين تلميذ الشاه عبد العزيز المحدث الدهلوي (رحمه الله)، نيل الوظيفة فيها لتدوين تاريخ بهوبال في عهد الأميرة سكندر جهان بيكم، و لكن بعد فترة قصيرة نشأ خلاف فقهي بينه و بين بعض العلماء في الإمارة، فاضطر إلى

مغادرة الامارة على الفور، و ارتحل إلى إمارة طونك، و لكن الجو هناك لم يلائمه، و أراد العودة إلى قنوج، إذ تلقى رسالة من الأميرة و من قبل الشيخ جمال الدين يطلبانه إلى بهوبال، فجاء و حظى بمقابلة الأميرة فاحتفت به و اكرمته و عينته في الديوان الأميري، فبذل مجهودا ضخما لإنجاز اعمال فوضت إليه، و نال حظوة الأميرة سكندر جهان، و اعجاب رئيس الوزراء و الشعب عامة، و بذلك ترقى إلى مناصب جليلة في الإمارة، ففتح مجالات واسعة في كل ميدان من ميادين الحياة، فتقدمت الامارة و أزهرت و اثمرت و اينعت يضرب بها المثل في السلام و الوئام، و السكينة و الهدوء و الطمانينة.

راى كل ذلك الشيخ جمال الدين و راى في الأمير صديق حسن العلم و الفضل و الخلق و النبل فعقد معه قران ابنته الفاضلة التقية، "زكيه بيكم" و استقدم الامير امه و اخواته من بلده قنوج و عاش الجميع عيشة هنيئة هادئة، و رزق الأمير من زوجته هذه بنتا و ابنين هما السيد نور الحسن و السيد علي حسن، كانوا من خيرة الأولاد علما و فضلا و خلقاً.

شعر السيد الأمير بشيء من الراحة عن مسئولية الرعاية و الكفالة لعائلته و ساعدته زوجته العالمة المخلصة الوفية في تسيير شئون البيت فاتجه إلى ميوله العلمية و انتاجاته الفكرية و كان قد ورث مكتبة من والده فزاد فيها و طلب كتبا و مؤلفات حديثة من البلاد العربية و الاسلامية و سعد بالحج و الزيارة سنة ١٢٨٥هـ، و اغتنم هذه الفرصة فنسخ خمساً و عشرين رسالة من رسائل الأمير محمد اسماعيل صاحب "سبل السلام" و اشترى الكتب التالية: اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله، و ارشاد الفحول إلى تحقيق الحق في الاصول، و نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار النصف الاول ، و فتح القدير للإمام الشوكاني". (٤)

و التقى في خلال فترة الحج و الزيارة كبار شخصيات إسلامية و وثق معهم روابط اخوية و علمية و عين له وكلاء في بلاد العرب يرسلون إليه كتبا و مؤلفات، و عاد بعد ثمانية اشهر من هذه الرحلة المباركة التي غيرت مجرى حياة الأمير في مجالاتها المختلفة، و اكب على التاليف و الترجمة في اللغات الثلاث: العربية و الفارسية و الاردية، و طبع الكتب القديمة و الحديثة، و عمر بذلك مكتبة الهند الإسلامية و ملأها بذخائر من الفكر الاسلامي تربو مؤلفاته عن مائتين و خمسين كتابا، فيها ست و خمسون كتابا في اللغة العربية عن مواضيع: التفسير و الحديث و الفقه و اللغة و الأدب، و قد القيت نظرة نقدية تحليلية عليها بالتفصيل في كتابي عن الأمير صديق حسن خان.

استطاع الأمير بإخلاصه للعمل و خدماته الجليلة أن يحتل مكانة مرموقة في قلوب الشعب و رجال الحكم و البلاط الأميري، فعين رئيسا للديوان الأميري، و لما اعتلت الأميرة شاه جهان بيكم العرش، رات فيه من العلم و الفضل و الجد و الاجتهاد و العمل الدائب و الحب و التقدير و الوفاء للحكم و الامارة نصيبا وافرا، فوثقت به، و كانت أعمال الامارة توسعت كثيرا، فاحتاجت إلى مساعد أمين مخلص وفي، و كانت أرملة توفى عنها زوجها قبل سنوات، و ولدت له ابنة كان اسمها سلطان جهان بيكم التي تولت الحكم بعدها، فاستاذنت الأميرة الحكومة الانكليزية للزواج مع الأمير صديق حسن خان، فسمحت لها فتزوجت منه في عام ١٢٨٧هـ/١٨٧١م (٥)، يقول العلامة الشيخ عبد الحيء الحسني عن هذا الزواج:

"كان يتردد (السيد الامير) بحكم منصبه إلى نواب شاه جهان بيكم ملكة بهوبال، و يمضى بين يديها، فالقى الله في قلبها محبته، فقربته إلى نفسها و كانت ايما، مات زوجها النواب باقى محمد خان قبل سنوات، و قد اقترحت

الحكومة الانكليزية الزواج ليكون زوجها بجوارها، ليساعدها في شئون الحكومة و الادارة، فتزوجت به لما علمت من شرف نسبه و غزارة علمه و استقامة سيرته، سنة سبع و ثمانين و مائتين و الف الهجرية، و جعلته معتمد المهام سنة ثمان و ثمانين و مائتين و الف، و منحته اقطاعا من الارض الخراجية تغل له خمسين الف روبية كل سنة"(٦).

عاش الزوجان بسلام و وئام و اخلاص و وفاء، يقومان بخدمة البلاد، و ترقيتها و تطويرها طبقا للشريعة الاسلامية الغراء، و نظراً لخدماته الضخمة منح السيد الأمير القابا و أوسمة، و لكنه احيط بمؤامرات و دسائس من قبل الحاسدين و المغرضين في الامارة، أساءت به الظن الأميرة سلطان جهان بيكم ولية العهد، و اوغر هؤلاء صدر بعض حكام الحكومة الانكليزية فانتزعت جميع الالقاب و لكنها لما ثبت لديها كذب و افتراء المغرضين ردت إليه تلك الالقاب و لكن بعد وفاته، و لقى محنا شديدة واجهها بصبر و حلم، صبر الصالحين الابرار، و اصيب بمرض الاستسقاء و توفى على اثره سنة ١٣٠٧هـ/١٨٩٠، رحمه الله تعالى.

و حينما عينت الأميرة شاه جهان بيكم السيد الأمير معتمد المهام ألقى نظرة جامعة شاملة على امور الإمارة و شئونها، فقرر بأن يقوم بالاصلاح و التطوير للأمور التالية و لكنه واجه بالعراقيل و العقبات بهذا الصدد فشجعته الاميرة قرينته و ساعدته و مدت إليه يد العون و أيدته كل تائيد و خاضت معه المعارك و شمرت عن ساق الجد لهذا الاصلاح و التطوير و يلخص كما ياتي:

١ ـ تحديد الاراضي و توزيعها بين الفلاحين كما يستحقون.

٢ ـ تحديد الاقطاعية و اعادتها إلى أصحابها الشرعيين.

٣ ـ رفع الضرائب الثقيلة الجائرة.

٤ ـ تنظيم نظام الزكاة طبقا للشريعة الإسلامية.

٥ ـ تنظيم محاكم و تعيين قضاة عادلين.

٦ ـ اصلاح نظام الشرطة و المخافر.

٧ ـ تأسيس مدارس في انحاء الإمارة للتعليم و التربية.

٨ ـ فتح مكتبات عامة زاخرة بالكتب.

٩ ـ إنشاء ادارة الحسبة (مكتب التفتيش و الامر بالمعروف و النهي عن المنكر).

١٠ ـ إنشاء المطابع الحجرية لطبع الكتب القديمة و الحديثة.

١١ ـ احياء ادارة الشئوون الدينية و تعيين علماء صالحين فيها، و تنظيم ادارة المساجد و تشييدها في العاصمة و المدن و القرى، و فتح الكتاتيب فيها لقراءة القرآن الكريم و مبادىء الإسلام.

١٢ ـ إنشاء مجلس الشورى للحكم على اساس "و أمرهم شورى بينهم".

١٣ ـ تنظيم جيش الإمارة من جديد و تحديد الرواتب حسب المراتب.

١٤ ـ انشاء مصلحة للبناء و التشييد للمباني الحكومية و المساكن الشعبية.

١٥ ـ نشر الوعي الاسلامي و بث التوعية الفكرية و الخلقية في الإمارة.

١٦ ـ الترغيب إلى نكاح الأيامى و زواج الأرامل الذي كان محظورا في

المجتمع الهندي قبل الحركة المباركة للإمام ولي الله الدهلوي و السيد احمد الشهيد رحمهما الله.

١٧ ـ الحظر على تعاطى المسكرات و الرشوة و الربا و القمار الذي كان عاما في الإمارة.

إنه نظرة إجمالية عامة على الخدمات العلمية و الاعمال الإصلاحية و الخطوات التقدمية التي قام بها السيد الأمير صديق حسن خان بتمام الحكمة و الحنكة و الإخلاص، و لم يرد بذلك إلاّ رضاء ربه تعالى، و صلاح الأمة و فلاحها، و استطاع بأن يشعل في الناس ثورة التفكير من جديد في العودة إلى الكتاب و السنة و احياء التراث و الشغف بالعلم و الأدب و اللغة و الحكمة و المعرفة، و جمع لديه علماء راسخين و جنودا مجندين لخدمة البلاد و الإمارة و الشعب، و اعتنى بكل مجال من مجالات الحياة الإنسانية، فاثمرت مجهوداته هذه، و بذلك يتضح بأن الأمير صديق حسن خان كان من كبار علماء الهند و من اعظمهم تاليفا و انتاجاً و نفعا، و له يد كريمة بيضاء في ميادين العلم و الفكر و الثقافة و الحضارة لا تنسى مادامت الأرض و السماء.

و إن كان الوقت يسمح لي بهذه الندوة العلمية الأدبية المنعقدة من قبل قسم اللغة العربية بجامعة دهلي لقدمت تعريفا عاماً لمؤلفات الأمير كلها و لكن استاذن لتقديم نموذج لبعض كتبه الادبية ليقدر اهمية مؤلفاته الادبية و قيمتها العلمية.

اللغـــة و الأدب:

لف القماط على تصحيح بعض ما استعملته العامة من المعرب و الدخيل و المولد و الاغلاط.

الكتاب موضوعه اللغة و هو في اللغة العربية، يحتوى على مائتين و ثمان و ستين (٢٦٨) صفحة، و طبع في الهند، جمع المؤلف الامير في الكتاب: الكلمات و الالفاظ و التعبيرات و المحاورات التي انتشرت بين العامة و هم يزعمون خطا انها عربية صحيحة، مع انها اخطاء فادحة عمّت حتى في الأوساط العلمية فحاول المؤلف التحديد بهذه الاخطاء و ضبطها و اتى بكلمات و تعبيرات صحيحة، على بصيرة و ضوء من المصادر العربية الموثوق بها و من كتب اللغة المعتبرة، و يستشهد من اقوال العرب الاقحاح و المؤلفين الأوائل في اللغة و الادب امثال عبد الحميد بن يحيى الكاتب، و ابن قتيبة و الاصمعى و ابي عبيد و الجاحظ، و سيبويه، و الخليل بن أحمد الثعالبي و الميداني وغيرهم.

و أذكر على سبيل المثال بعض بحوث المؤلف فيقول:

"فالحرف الذي من حروف العرب و مما يعرف به المعرب، اجتماع الجيم و القاف فإنهما لم تجتمعا في كلمة واحدة من كلام العرب إلّا ان تركوا معربة او حكاية صوت و لا تجتمع الصاد و الجيم في كلام العرب إلّا في "صمج" و هو القنديل، و لا نون بعدها راء و لا زاء بعد دال و لا لفظ عربي من "باء و سين و تاء" و لم يجتمع في العربية سين و زاى و لا سين و ذال معجمة إلّا في كلمة معربة كساذج معرب سادة".

و يقول: "و المولد من الكلام المحدث يقال هذه عربية و هذه مولدة و هي ما احدثه المولدون الذين لا يحتج بالفاظهم و الفرق بينه و بين المصنوع ان المصنوع يورده صاحبه على انه عربي فصيح و هذا بخلافه، ثم ان المؤلفين كما غيروا الابنية غيروا هيئة التركيب و أوزان الشعر فاقسام النظم عندهم سبعة: الشعر و الموشح و الرباعى معروفة، و الزجل و كان و قوما و احماق و هي

لا تكون إلا ملحونة و واحد برزخ و هو و المواليا و كان له وزن واحد، و انظر الأول منه أطول من الثاني".

هكذا درس المؤلف الالفاظ المعربة و المعجمة و المولدة التي دخلت اللغة العربية او انتقلت الالفاظ العربية إلى لغات اعجمية اخرى، و بحثه جيد مفيد.

قال المؤلف عن الكتاب:

"فإني رأيت كثيرا ممن ركبوا متون لسان العرب و سلكوا بينات الطرق في مدن الادب قد ضاهموا العامة في بعض محاورات كلامهم و شافهوا "المولدون" اقلامهم في ملاحن اقلامهم مما يزرى بقدرهم العلي، قد عانى الأنف إلى انب جنابهم عن الشين و ازيل عن قيلهم هذا الرين فألفت هذا الكتاب و اودعته من النسب، كل باب في احسن إيجاز و ألطف اطناب و سميت "لف القماط" ... و رتبته على مقدمة و فصول و خاتمة ".

نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان:

إن الكتاب قطعة أدبية رائعة، جادت في تأليفه قريحة الأمير الفياضة، فصاغت في ألفاظ عربية، صورة بديعة جيدة و مدهشة للأدب و الشعر، يعكس الكتاب مواهب الأمير الادبية و قدرته الشعرية، الكتاب يحتوى على ١١٢ صفحة بالحجم المتوسط بل الصغير طبع في مطبعة الجوائب بالقسطنطنية عام ١٢٩٦هـ يقول الأمير عن الكتاب:

"فهذا بيان العشق و العشاق و المعشوقات من النسوان و ما يتصل بذلك من تطورات الصبوة و الهيمان، الذي افصح به اصحاب ديوان الصبابة و تزيين

الأسواق و سبحة المرجان، لخصته فيها حلية للأذان، و اتيت فيه باشياء مما يزرى باريج الريحان و سميته نشوة السكران من صهباء تذكار الغزلان و رتبته على مقدمة و فصول و خاتمة".

يقدر القارىء بهذه القطعة التي اقتبسناها من الكتاب للبيان عن الكتاب، و نكر الأمير في آخر الكتاب قصيدة قرضها في شبابه، إليكم بعض الأبيات منها:

لله غانيـــة في مهجتـــى نزلـت　　　مالت إلى الوصل و قائم ماوصلت

صحت بقلبى و ضامتني بلاسبـب　　　يا أيها القوم قولوا كيفمـا فعلـت

أ تحفت جوهر قلبى نحو حضرتها　　　ألقت إلى قماشا متومـــا قبلـت

لله درك يا صدّيق من كلــــــــم　　　نظمتها و هي في أوصافها كملت

صلى الاله على المختار من مضـر　　　ما دام سنته للمؤمنين حلــت (٨)

البلغة في أصول اللغـــة:

كتاب في الأدب، نكرت فيه طرائف أدبية و مبادئ و أصول لغوية، كتاب قيم و نافع جدا.

الهوامش:

١ ـ ابقاء المنن ص ٧ ، ٢ ـ نفس المصدر ص ٧.

٣ ـ المصدر المنكور ص ٧.

٤ ـ مقالتي عن الأمير صديق حسن، مجلة الأمة ص ٧٩.

٥ ـ نفس المصدر ص ٧٩.

٦ ـ نزهة الخواطر ج ٨ ص ١٨٩ ـ ١٩٠

٧ ـ مجلة ثقافة الهند عدد ٣ مجلد ٤٣ ١٩٩٢م ص ٨٨.

٨ ـ مسودة كتاب "الأمير صديق حسن خان: حياته و آثاره.

المراجع:

الأمير صديق حسن خان: أبجد العلوم، المطبعة الصديقية بهوبال ١٢٩٥هـ.

" " ابقاء المنن بالقاء المحن: المطبع الشاه جهاني بهوبال ١٣٠٥هـ.

" " الروض الخضيب، مفيد عام آكره ١٢٩٨هـ.

" " رحلة الصديق إلى البيت العتيق، المطبع العلوي لكهنؤ ١٢٨٩هـ.

العلامة عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر في بهجة المسامع و النواظر، دائرة المعارف حيدرآباد ١٣٩٠هـ.

الأستاذ سليم فارس: قرة الأعيان و مسرة الأذهان، مطبعة الجوائب، قسطنطنيه ١٢٩٨هـ.

الأمير علي حسن خان: مآثر صديقي، طبعة نول كشور لكنؤ ٤١ ـ ١٩٤٢م.

مجلة الأمة. دولة قطر عدد ٤٧ اغسطس ١٩٨٤م.

مجلة رابطة العالم الاسلامي عدد ١٠، مكة المكرمة سبتمبر ١٩٧٨م.

مجلة ثقافة عدد ٣ مجلد ٤٣ دلهي ١٩٩٢م.

واقع اللغة العربية في الهند

بقلم: أ. د. شفيق احمد خان النّدوي

اللـغـة الـعـربـية هي من أهم اللغات العالمية الحية و أعرقها منذ القدم. و لـغة حياة لأكثر من ٣٠٠ مليون من العرب في ٢٢ دولة عربية، و لغة فكر و ثقافة و روح و عـبادة لأكثر من مليار و ربع من المسلمين، يشكلون ربع البشرية تقريباً، يـسـتـخـدمونها في صلواتهم و يرددونها فيها خمس مرات على الأقل يوميا، في كـافـة أنـحـاء الـمـعـمورة، يعتزون بها و يعتبرونها شرفا و مفتاحا لسعادة الدنيا و الآخـرة. إنـهـا لـغـة من لغات عمل مؤسسات جمعية الأمم المتحدة باعتبارها أعـظم اللغات البشرية كفاءة، و أكثرها مرونة و أقدرها على التعبير عن مختلف فـنـون الـقـول، و ذلـك بـنـاء على خواصها اللغوية، و أصولها الإيقاعية، و خصب مـنـاهـجـها في الاشتقاق، و قياسية أوزانها، و شدة حرصها على جمال الأسلوب، و انـواع مـنـوعـة من الـبلاغـة و الـبـيـان، وسـعـة صـدرهـا لـلـتعريب و صياغة الـمـصـطـلـحـات الـعـصـريـة، إلى جانب مكانتها الاجتماعية الدولية، و قدرتها الاقتصادية و أهميتها السياسية المعروفة.

أمـا بـالـنـسـبـة إلى نصيب الهند و شبه القارة الهندية في شأن تبني اللغة الـعـربـيـة صـيـانة و نشراً و خدمة و إسهاماً لها فإنه كان و مازال أبرز من جميع الـشعوب غير العربية في العالم. فالمكتبات العربية مليئة و مزدهرة بالمؤلفات الـعـربـيـة الإسـلامـيـة من الـهند، تدل عليها الموسوعات بما فيها كشف الظنون

ـلحاج خليفة، و الثقافة الإسلامية في الهند للشيخ عبد الحي الحسني (من صدار المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٨م) و معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، و من أهم مؤلفات كتاب شبه القارة الهندية العباب الزاخر للعالم اللغوي حسن بن محمد الصغاني اللاهوري (من ابناء القرن السابع الهجري) الذي اعترف بفضله العلامة السيوطي و الإمام الذهبي و الدمياطي في مجالات اللغة و الحديث و الفقه. و له تاليف آخر في الحديث النبوي الشريف و هو مشارق الأنوار.

و كذلك فإن الكتاب كنز العمال للشيخ علي متقي الكجراتي (من القرن العاشر الهجري) الذي نشرته دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، هو كنز ثمين للأحاديث و دليل نافع لموسوعة العلامة جلال الدين السيوطي في الحديث النبوي الشريف المسماة بـ "جمع الجوامع" و قال الشيخ ابو الحسن البكري، الشافعي احد محدثي القرن العاشر في الحجاز: إن العالم الإسلامي مدين للعلامة السيوطي بالشكر لخدمته في علوم الحديث النبوي الشريف، و العلامة السيوطي بنفسه مدين للشيخ علي متقي الهندي بالشكر لتحقيق مجموعته جمع الجوامع باسم كنز العمال.

و مجمع بحار الأنوار للشيخ محمد طاهر البتني (م ٩٨٦هـ) و كتابه الآخر باسم تذكرة الموضوعات كتابان قيمان لا يستغني عنهما أحد من دارسي علوم الحديث النبوي الشريف. و الفتاوى الهندية موسوعة فقهية حنفية و مرجع مهم باللغة العربية، تم تدوينها بامر من السلطان المغولي أورنك زيب عالم كير (١٦١٨ ــ ١٧٠٧م) تحت إشراف لجنة مكونة من الفقهاء و المتخصصين في دلهي.

و مسلم الثبوت في اصول الفقه للشيخ محب الله البيهاري (م ١١١٩هـ) مرجع فقهي لخر شرحه الفقهاء و المحدثون في عصور مختلفة و ذكر الشيخ

عبد الحي الحسني في كتابه: الثقافة الإسلامية في الهند شروحا يبلغ عددها ١٠.
و كشاف اصطلاحات الفنون للشيخ محمد علي بن أعلى التهانوي المتوفى بعد ١١٥٨هـ/١٧٤٥م و وصفه جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (٣/٣٥٤) بأنه معجم لغوي فني اصطلاحي جمع فيها المؤلف مصطلحات العلوم و تعريفها و شرح الموضوعات الاصطلاحية حسب العلم و قد يأتي بفذلكة تاريخية عن أسباب تلك التسميات فهو من خيرة الكتب التي تقتنى للمراجعة و يستعان به في وضع المصطلحات العلمية الحديثة.

و الشمس البازغة في الحكمة، و الفرائد شرح الفوائد لصاحبها الملاّ محمود الجونبوري (م ١٠٦٢) الذي قال عنه الشيخ غلام علي آزاد البلكرامي في سبحة المرجان: إنه لم يظهر بالهند مثل فاروقيين أحدهما في الحقائق و هو أحمد السرهندي و الثاني في العلوم الحكمية و الأدبية و هو الملاّ محمود الجونبوري.

و حجة اللّه البالغة للإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) كتاب رائع بديع حول أسرار أحكام الشريعة و حكمة الدين و فلسفة الشرع الإسلامي لم يسبق له نظير في آداب الشعوب الإسلامية جمعاء. و طبع في مصر مرارا و تكرارا، أشاد العرب بأسلوبه العربي السليم إشادة بالغة.

و تاج العروس في شرح القاموس للعلامة الشريف مرتضى البلكرامي الزبيدي (م ١٢٠٥ هـ) و يحتوى على خمسة آلاف صفحة في عشرة مجلدات ضخمة هو ليس شرحا للقاموس المحيط للعلامة مجد الدين الفيروز آبادي فقط بل و إنه تحقيق و تصحيح و تعديل و إضافات اعترف بفضله العلماء و الملوك من سائر أرجاء العالم.

و انجبت الهند ابباء و مؤلفين في القرن الرابع عشر الهجري كذلك و على سبيل المثال و لا الحصر الأمير صديق حسن خان القنوجي البهوبالي (م ١٣٠٧ هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة باللغة العربية و الاردية و الفارسية و من ضمنها ٥٦ مؤلفا عربيا نحو ابجد العلوم، و التاج المكلل و البلغة في اصول اللغة و العلم الخفاق في علم الاشتقاق.

كما خلف الشيخ عبد الحي الفرنكي محلي (م ١٣٠٤هـ) ٨٦ كتابا باللغة العربية اهمها الفوائد البهية. و الشيخ اشرف علي التهانوي (م ١٣٦٢ هـ) خلف لنا ١٣ مؤلفا بالعربية من بين مؤلفاته الكثيرة التي يبلغ عددها ٩١٠.

و الف الشيخ محمد حسن التونكي (م ١٣٦٦ هـ) معجما للمؤلفين المسلمين باسم معجم المصنفين. إنه يعتبر موسوعة كبيرة محتوية على ٦٠ مجلدا ضخما مكونا من عشرين الف صفحة تتضمن اربعين الف كاتب من كتاب اللغة العربية، تم نشر ٤ مجلدات منها في بيروت على نفقة إمارة حيدرآباد المنصرمة، كما الف العلامة الشيخ عبد الحي الحسني الراي بريلوي موسوعته الشهيرة نزهة الخواطر و بهجة المسامع و المناظر في تراجم علماء الهند و اعيانها طبع اخيرا باسم الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام في ثمانية مجلدات، إلى جانب مؤلفيه الشهيرين: الهند في العالم الإسلامي، و الثقافة الإسلامية في الهند.

و مما يجدر بالذكر ان العلامة شبلي النعماني (١٨٥٧ ـ ١٩١٤م) عندما انتقد على جورجي زيدان في تاريخ التمدن الإسلامي و نشر نقده في مجلة المنار المصرية على حلقات عام ١٩١٢م فاصدر العلامة رشيد رضا بيانا قال فيه ان المسيحي جورجي زيدان زيّف الوقائع و المراجع و ذم العرب و روى الإسرائيليات

و الروايات غير الصحيحة، فلم يرد عليه احد من العرب. و إنما قام مجاهد هندي و أدى فريضة الكفاية عن الأمة الإسلامية فدافع عن الإسلام و المسلمين، الا و هو المصلح التربوي الكبير شبلي النعماني.

اما بخصوص العصر الحاضر فإن اللغة العربية و آدابها مزدهرة للغاية و دراستها على قدم و ساق فيما بين الجامعات و المعاهد الهندية الأهلية منها و الرسمية على ايدي الأدباء المعروفين و في مقدمتهم الشيخ ابو الحسن الندوي رحمه الله (١٩١٤ ـ ١٩٩٩م) صاحب الأسلوب الخاص بالمدرسة الأدبية الإسلامية العربية الهندية، على حد تعبيره بالذات. فإن الهند و الإسلام و العربية تتجلى كجزء لا يتجزأ من خلال مؤلفاته العربية بوفرة و عددها يبلغ ١٧٧ مؤلفا عربيا بين صغير و كبير، و أهمها: المسلمون في الهند، و ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، و روائع إقبال، و الطريق إلى المدينة، و أحاديث صريحة مع إخواننا العرب و المسلمين، و الإسلام أثره في الحضارة و فضله على الإنسانية، و رجال الفكر و الدعوة في الإسلام، و العرب و الإسلام و نحوها.

و تتسم كتاباته بدعوته الصريحة للعرب إلى القيام بالجهود الرامية إلى استعادة مكانهم الطبيعي في القيادة البشرية و الحضارة الإنسانية. و يتوجه شيخنا الندوي، بهذه الدعوة، إلى إخوانه العرب، من غير مجاملة بل و يعتبرها جريمة خلقية مناوئة للإخلاص في حقهم. فيقول في كتابه "العرب و الإسلام": إنني لا اقل عن اكبر عربي يعيش في العواصم العربية في عربيتي و نسبي الصريح و حبي للعرب و تضلعي من ثقافتهم و علومهم و آدابهم و لغتهم، و ليس أحد من إخواني العرب الأقحاح أولى بالاعتزاز بالعربية مني و أوفر نصيبها مني، و لكن الإسلام افضل من كل نسب و اقوى من كل عصبية.

يحاول الشيخ الندوي في هذا الكتاب، على حد تعبيره بالذات: إثارة الشعور

لإسلامي أو إيقاظ الروح الإسلامية في نفوس العرب الذين اصبح كثير منهم
فعل عوامل كثيرة في حاجة إلى ذلك، من مدة قصيرة، و هو إثارة كريم عريق
ني الكرم و تحريك اريحيته للمكارم و البطولات، و هو إيقاظ اسد غلبه النعاس
اخيرا ليحتل مكانه الطبيعي في الغابة. و حاشا أن يكون تعليم جاهل أو إقناع
جاحد. و أسلوبه في غاية الروعة و الجمال و له قدرة عالية في البيان. و قد صدق
الدكتور فاروق حماده في كتابه: مصادر السيرة النبوية و تقويمها فاجاد حين
قال:

"تمتاز كتابات العلامة الندوي كلها بعذوبة و رقة. قلما تجد لها نظيرا بين
كتابات المعاصرين. و تفيض مؤلفاته و كتبه عاطفة و حيوية و حماسا. و هذا
ما يجعل القاريء يعيش الفكرة التي يتحدث عنها الأستاذ الندوي بأحاسيسه
و بفؤاده، و بعقله و فكره و أنه يكتب بمواد الفؤاد، و نور اليقين الذي ملأ اقطار
قلبه. إنه لرائد جيل في هذا الميدان و مؤسس مدرسة منفردة".

هذا في مجال النثر و اما في مجال الشعر فقد انجبت الهند شعراء عباقرة
باللغة العربية من امثال عبد المقتدر الكندي الدهلوي (م ٧٩١ هـ) و احمد بن
محمد التهانيسري (م ٨٢٠ هـ) و شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ)
و غلام علي آزاد البلكرامي صاحب السبع السيارة (م ١٢٠٠) و صدر الدين المفتي
الدهلوي (م ١٢٨٥) و الشيخ فيض الحسن سهارن بوري (م ١٣٠٤) و الشيخ ذو الفقار
علي الديوبندي (م ١٣٢٢)، و الشيخ حميد الدين الفراهي (م ١٩٣٠م). و إليكم بعض
النماذج:

يقول الشيخ احمد بن عبد الرحيم المعروف بـ "شاه ولي الله الدهلوي
(م ١١٧٦هـ) في مديحه النبوي الشريف المكون من مئة بيت و ستة (نقلا عن
نزهة الخواطر للشيخ عبد الحي الحسني ج ٨) كالآتي:

كان نجوما أو مضت في الغياهب ... عيون الأفاعي أو رؤوس العقارب

إذا كان قلب المرء في الأمر خاثرا ... فاضيق من تسعين رحب السباسب

و تشغلني عني و عن كل راحتي ... مصائب تقفو مثلها في المصائب

إذا ما انتتني ازمة مدلهمة ... تحيط بنفسي من جميع الجوانب

تطلبت هل من ناصر أو مساعد ... الوذ به من خوف سوء العواقب

فلست أرى إلا الحبيب محمدا ... رسول إله الخلق جم المناقب

و معتصم المكروب في كل غمرة ... و منتج الغفران من كل هائب

ملاذ عباد الله ملجأ خوفهم ... إذا جاء يوم فيه شيب الذوائب

إذا ما أتوا نوحا و موسى و آدما ... و قد حالهم إبصار تلك الصعائب

فما كان يغني عنهم عند هذه ... نبي و لم يظفر هم بالمآرب

هناك رسول اللّه ينجو لربه ... شفيعا و فتاحا لبيب المواهب

فيرجع مسرورا بنيل طلابه ... اصاب من الرحمن على المراكب

سلالة إسماعيل و العرق نارع ... و أشرف بيت من لوي بن غالب

بشارة عيسى و الذي عنه عبروا ... بشة باس بالضحوك المحارب

و من أخبزوا عنه بأن ليس خلقه ... بفظ و في الأسواق ليس بصاحب

و دعوة إبراهيم عند بنائه ... بمكة بيتا فيه نيل الرغائب

جميل المحيا ابيض الوجه ربعة ... جليل كراديس ازج الحواجب

صبيح مليح أدعج العيـــن أشكل　　فصيح له الإعجـــام ليس بشائـب
و أحسن خلق الله خلقـا و خلقة　　و أنفعهـــم للناس عند النوائـــب
و أجود خلق الله صـــدرا و نائلا　　و أبسطهم كفا علـــى كل طالـب
و أعظم حر للمعالي نهوضــــه　　إلى المجد سام للعظائم خاطـــب
ترى أشجع الفرسان لاذ بظهـره　　إذا احمر باس في بئيس المواجب

و يـقـول الـشيخ عبد الحميد/ حميد الدين الفراهي (م ١٣٤٩ هـ) في تذكير الـنـاس بـالآخرة بـأسـلوبه المرن الفصيح الرائع الجذاب طبقا لديوان الفراهي طبعة باكستان (١٩٦٧م) ما يلي:

أمـــــا للنـــاس أحـــلام　　أهـم فـــي السكـــر نوام
و هم وراد حوض المـــو　　ت أصـــرام فاصـــرام
فآبـــــاء و أبنـــــــاء　　و أخـــوال و أعمــــام
و إخـــوان و خـــــلان　　و أخـــدان و أحـــــلام
فخانتهـــــم قرابـــات　　و أنســـــاب و أرحــــام
و ريب الدهـــــر يبريهـــم　　و توهي العظـــم أسقـــام
فحبـــل الموت ممـــدود　　و حبل العيـــــش أرمـــام
و هـــــم باللهـو و اللذا　　ت مشغولـــــون ما داموا
بجمـــــع الوفر منهو مو　　ن و الآثـــام هيـــــام
لهم بالبغــــي تهمـــام　　و بالفحشـــاء إبـــــرام

و هـــــم لا بد محشـــورو ن يوم و هـــــــو أيـــــام

عن النعمـــــــاء مسئولـــو ن و السائـــــل عــــــلام

سـؤالا فيــــــه إيـــلام و إلزام و إفحــــــــــام

و تفجيـــــــــع و تقريـــع و تخضيــــع و إرغـــــام

هــذا هـناك شاعر من شعراء جنوب الهند المعاصرين و اسمه علي بن فريد الكشنوري قرض قصيدة و عنوانها اللغة العربيـــة و هي كالآتي:

إن اللغات كثيـرة بين الـــورى بمناسبات مناطـــق البلـــدان

لكن نفضل بعضها عـلى بعـض بمزيـــة التعبيـــــر و التبيان

فنرى رُقيّ الناس فـي مَتنيـــة و حضـــــارة مربوطـــة بلسان

وخصائص العربية الفصحى تقا دُمُ عهدها في غابـــر الأزمـــان

و هي الفريدة في العـلو فلا يُرى بين اللغـــات لها مثيـــل ثان

عربية عرقت جنور أصولهـــــا و تشبكت بطبيعـــة الإنســـان

لا يعتريها المسح و التغييــــر بل هـــي ترتقي بعنايـــة الرحمان

و لها مزيّات تُغايـــــر غيرهـــا مـــن حيث ألفاظ و حيث معان

فبها تعبّر عـــن ضمائرنا بإيـــ جاز الكلام و أفصـــح التبيـــان

فحجاز طينتها و فاح نسيمهـــا في مصر ثم الشـــام و اللبنـــان

و استوطنت يمناً و دمشق مثلما رسخت بأرض عــراق و الإيـران

حتى إذا بلغت اشد حياتهـــــا و تمكنت لتسيح فـــي البلـدان

اعلى مزيتها الالـــه بجعلهـــا لغةٌ لمـــا اوحاه مـــن قرآن

فبه ازدهـت و تثبتت و ترفّعـت و تسابقت فـــي المجد كل لسان

و به استقامتها و حفظ أساسها و نموها فـــي سائـــر الأوطان

و لنا بتلك علاقـــة ابديـــــة مفروضـــة بتنـــزّل الفرقـــان

و بحيثما كانت خزائن حكمـة و شريعـــة و ينابـــع العرفـــان

لا بد منها للألـــى يتمسكـــو ن بملّـــة الإسـلام بالبرهـــان

و لذاك قـــال الشافعي إمامنـا بوجوبهـــا لتفهّـــم القُــرآن

(نقلا عن الأستاذ عبد الرحمن، تى. محاضر كلية اسماء بي كوبونغابورة كيرالا. مع جزيل الشكر.)

فـالـلـغـة العربية ليست من اللغات الأجنبية عندنا او الغريبة علينا. و إنها مدروسة و متعلمة و مستخدمة في هذه البلاد على المستوى الثقافي منذ القرون فـي هـذه الـبـلاد الـغـابرة التليدة. تدل عليها الآثار التاريخية و الكتاتيب العربية و الجامعات الإسلامية الأهلية منها و الرسمية الحكومية التي لا تعد و لا تحصى في سـائر أرجاء بلدان شبه القارة الهندية. حيث يتعلمها المسلمون لفهم القرآن الـكـريـم و سـنـة رسولـه عـليه الصلاة و التسليم. و لا يسمحون أطفالهم ببداية دراسـتـهـم الابـتـدائـيـة مـا لـم يـتـمـكـنوا من تلاوة القرآن الكريم و حفظ السور و الأدعـيـة الـمـاثـورة بـالـلـغـة العربية مع معرفتهم بمبادئه الشرعية و الأحكام الإسلامـية. اما غير المسلمين فإنهم يتعلمونها للحصول على المنافع و الفرص

الوظيفية و تحسين العلاقات التجارية مع الأقطار العربية، بعد اكتشاف الموارد الطبيعية في العالم العربي.

و فيما يلي مناهج رئيسية أربعة في قاطبة أنحاء الهند:

(١) المنهج التقليدي المعروف بالدرس النظامي الذي وضعه الشيخ نظام الدين السهالوي اللكنوي (١١٦١ هـ/١٧٤٧م)، و هو متبع و رائج في المدارس الإسلامية العربية و دور علومها و في مقدمتها دار العلوم بديوبند، و مدرسة سهارنبور و المدرسة العالية النظامية في لكنئو و يستهدف تمكين الدارس من فهم الكتاب و السنة و أصول الدين الإسلامي الحنيف من أجل الدعوة إلى الله فيما بين الناس.

(٢) المنهج الوسيط الذي أعدتها دار العلوم لندوة العلماء، بلكنئو و هو مكون من العلوم الدينية و العلوم العصرية مع الاهتمام باللغتين العربية و الإنجليزية و التمرن عليهما و رائج بين كثير من الجامعات الإسلامية الأهلية منها مدرسة الإصلاح سراي مير، و جامعة الفلاح أعظم كره، و الجامعة السلفية بنارس و جامعة دار السلام، عمر آباد و دار العلوم الإسلامية، حيدر آباد و نحوها كثير، بهدف إعداد الدعاة المخلصين لدين الله و الكتاب و المؤلفين و الأدباء و علماء الدين الراسخين في العلم.

(٣) المنهج العصري المتبع في الجامعات العصرية الحكومية و على رأسها جامعة علي كره الإسلامية و الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، و الجامعة العثمانية، حيدر آباد، و جامعة كيرالا، كاليكوت في كيرالا و نحوها. و هو عبارة عن المقررات الدراسية العربية العصرية ذات الاهتمام بقدر كاف من التدريبات اللغوية الحديثة و التمرن على الترجمة

من العربية إلى الإنجليزية و بالعكس و يهدف إلى إعداد المستفيدين من المكتبات العصرية من اجل الحصول على الوظائف و المكانات الاجتماعية اللائقة.

(٤) مناهج قصيرة المدى بالفصول المسائية في عديد من الجامعات العصرية و في المعاهد الخاصة بهدف تمكين المتعلمين الكبار من المحادثة العربية الوظيفية و من الترجمة العربية الإنجليزية في اقصر وقت ممكن.

هذه لمحة خاطفة عن واقع اللغة العربية في الهند في مجالات اللغة و الادب و الثقافة العربية الإسلامية، ماعدا نشاطات مئات من الجامعات العصرية الحكومية و الجامعات الأهلية الإسلامية التي تولي اهتماما متزايدا في تعليم و تعلم اللغة العربية و آدابها في الهند منذ البداية و حتى نهاية مرحلة التخصص في العلوم اللغوية و الادبية و الشرعية و درجة الدكتوراه كذلك، و نتوقف عن ذكرها في هذا العرض السريع. غير أنني اود ان الفت انتباه القاريء العربي إلى مجال خصب آخر و هو مجال الصحافة العربية، إذ انها مزدهرة و متطورة في هذه الديار و تضاهي الصحافة العربية العصرية الراقية على مستوى عال من الروعة و البيان. و على سبيل المثال، لا الحصر مجلات و صحف و دوريات تصدر بصورة منتظمة، من غير انقطاع او احتجاب و في مقدمتها مجلة ثقافة الهند الفصلية الصادرة عن المجلس الهندي للعلاقات الثقافية نيو دلهي منذ ١٩٥٠م، و مجلة البعث الإسلامي الشهرية منذ ١٩٥٥م، و صحيفة الرائد نصف الشهرية منذ ١٩٥٩م الصادرتان عن ندوة العلماء في لكنئو، و مجلة صوت الامة عن الجامعة السلفية، بنارس منذ ١٩٦٩م، و مجلة الداعي الشهرية عن دار العلوم ديوبند منذ ١٩٧٦م، و مجلة الصحوة الإسلامية عن دار العلوم حيدر آباد منذ ١٩٨٩م.

هـذا بـجـانـب، و بجانب آخر فإن هناك قسم عربي في إذاعات عموم الهند الـخـارجية في العاصمة الهندية ينشر برامج عربية منوعة تحت إشراف الأستاذ محمد افضل النقوي يوميا كل صباخ و مساء بمساعدة منيعين مترجمين اكفاء. اما بـالـنـسبة إلى المراكز الثقافية العربية و دور النشر العربية الإسلامية فإنها لا تـعـد و لا تـحـصـى من أمـثـال جـامـعة ندوة العلماء، لكننو ، و جامعة ديوبند، و جـامـعة علي كره، و الـجامعة الإسلامية، و جامعة كالي كوت، و دائرة المعارف الـعثمانية بالـجامعة العثمانية بحيدرآباد و نحوها كثير تتجلى من خلالها اعمال و تطلعات مستقبلية مشرقة بمشيئة الله تعالى و توفيقه.



مولانا أبو الكلام آزاد
و إسهامه في الصحافة العربية في الهند

بقلم: د. محمد أيوب تاج الدين الندوي

الهند بلاد العجائب و الاعاجيب و من الاعاجيب التي تحير العقول في الهند شخصية مولانا أبو الكلام آزاد، إذ هو من الرجال العظام الذين قلبوا تيار تاريخ الهند السياسي. كان مولانا ابو الكلام آزاد شخصية نادرة قل ان يجود الزمان بمثلها جمع بين الإمامة في الدين و العلم و بين الزعامة في الادب و السياسة و بين الريادة في الصحافة و الكتابة. و كان له دور قيادي فعال في إيقاظ المسلمين و في حركة تحرير البلاد. و كانت شخصيته شخصية فذة عصامية نال علما وافرا و ثقافة واسعة بذكائه الوقاد النادر و عبقريته العجيبة فذاع صيته في العالم. كان اديبا و شاعرا، مؤلفا و صحفيا و خطيبا مصقعا و اشتهر لعلو كعبه في مختلف الميادين و يقول هو عن نفسه في مكان:

"سواء كان المجال مجال الأدب أو الدين، و سواء كان الميدان ميدان السياسة أو العلو في الافكار، سافرت وحدي في كل المجالات حتى تركت الزمن خلفي، و لما نظرت إلى الوراء فلم أر إلا اثار خطواتي و تراب اقدامي". (١)

كانت دلهي وطن والده، فكان مولانا ابو الكلام آزاد دهلويا و كان يكتب مولانا مع اسمه "الدهلوي" في بعض جرائده. و لكن في الحقيقة لم تكن اسرته اسرة هندية و إنما كانت وفدت إلى دلهي عن طريق أكره في عهد الملك المغولي

الهندي بابر و حظي بعض أعضاء أسرته بالوظائف بالبلاط الملكي. فخدم الدولة التيمورية في الهند و ولد خير الدين والد مولانا آزاد في دلهي و لما توفى والده و هو صغير كفاه جده لأمه و هاجر به إلى الحجاز و شب والد مولانا في مكة و تعلم هناك فكان عالما جليلا و كان له اتباع و مريدون في الهند و كان يتنقل بين مكة و بين كولكاتا و تزوج في مكة بنت أحد كبار علماء المدينة.

ولد مولانا أبو الكلام آزاد في مكة المكرمة من أب هندي و أم عربية عام ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م و سمي باسم "محي الدين أحمد" و انتقلت الأسرة بعد مولده بسنتين من مكة إلى مدينة كولكاتا و كانت أمه بنت عالم فاضل من المدينة المنورة و التي انتقلت إلى رحمة الله بعد مجيئها إلى الهند بعام واحد، و كان والده قد مكث في مكة مدة ثلاثين عاما و حول مولده و وفاة أمه و انتقالهم إلى كولكاتا كتب آزاد يقول:

"ولدت في مكة المكرمة سنة ١٨٨٨م و عاد والدي في عام ١٨٩٠م إلى كولكاتا مع جميع أسرته و كان الداعي إلى عودته أنه سقط مرة في جدة فانكسرت ساقه و لم يجد من يرجعها إلى استقامتها فاشار عليه أصدقاءه بان أطباء كولكاتا يستطيعون علاجه .... و توفيت والدتي بعد قدومنا إلى كولكاتا بسنة (١٨٩١م) و دفنت في ترابها." (٢)

مكث مولانا أبو الكلام آزاد لمدة سنتين في مكة و كانت اللغة العربية لغة أمه فنطق بها هو أيضا و عاد به والده إلى كولكاتا و توفيت والدته بعد قدومها إلى الهند بسنة فنشأ و ترعرع في كنف والده و في رعاية أخواته و كان يتحدث باللغة الأربية إذ كانت هي لغة والده و أسرته.

إن مولانا آزاد لم يلتحق بمدرسة او كلية و لا جامعة و لم يحصل على شهادة علمية من أي معهد من المعاهد العلمية، بدا دراسته كعادة اسرته و كان والده حريصا على حسن تربية ابنه و تعليمه فلم يرسل ابنه كيفية ابناء الآخرين إلى المدارس بل اخذ يعلمه هو بنفسه و كان يستدعى له المدرسين الماهرين في المنزل فكانوا يتولون تعليمه تحت رعايته و توجيهه ثم استمر في دراسته بقراءة واسعة و فكرة و قادة و ظهرت علامات الذكاء و النبوغ عليه ففاق اقرانه و تخرج في عام ١٩٠٤م.

و يقول مولانا آزاد في مذاكرته:

"و كان والدي من المومنين بالتقاليد القديمة، و لم يقل قط بالتعليم الغربي، فلم يخطر بباله ان يدربني تدريبا حديثا او يعلمني على نمط جديد، فقد كان يعتقد أن التعليم الجديد سيقضي على العقيدة الدينية و من أجل هذا اهتم بتعليمي وفق الطرق التقليدية المعهودة". (٣)

و حسب التقاليد السائدة لمسلمي الهند منذ زمن قديم و التي لا تزال معمولا بها إلى حدما حتى يومنا هذا بدا آزاد دراساته بتعلم اللغة العربية و حفظ القرآن عن ظهر قلب و قراءة كتب الحديث و التفسير و غيرها من العلوم الإسلامية بالإضافة إلى تعلمه اللغة الإنجليزية، و طبعا كانت الأردية لغته الام. و انهمك في القراءة و الكتابة و رغب في السياسة حتى اصبح من احد زعماء مسلمي الهند آنذاك و كان له دور بارز في إيقاظ المسلمين من سباتهم و دعوته إلى حركة التحرير و كان يجري المفاوضات مع الإنجليز كممثل للهند حتى نالت استقلالها. و كان قد بدا حركته الإصلاحية الدينية في المسلمين منذ ان كان

شابا و بعث فيهم روح الإسلام التي ترفض المهانة و عمل على إزالة كل العراقيل و الحواجز التي كانت تحول بينهم و بين الهندوس لأنهم (أي المسلمون و الهندوس) كانوا يعيشون تحت سماء واحدة، و على أرض واحدة و لذا كانوا مرتبطين بالأخوة الوطنية.

اسس آزاد مجلة شهرية باسم "المصباح" في مدينة كولكاتا باللغة الأردية في عام ١٩٠١م (٤)، ثم انشا مجلة "الندوة" الأردية بمدينة لكنئو و التي كانت تعتبر لسان حال "ندوة العلمـــاء" و ذلك بإلحاح من شبلي النعماني (١٨٥٧ - ١٩١٤) (٥). و لكنه بعد ما قضى فترة في لكنئو انتقل إلى مدينة أمريتسر و اسس صحيفة "الوكيل" الأردية النصف أسبوعية (٦) و لكن لم تطل مدة إقامته في هذه المدينة إلا سنة واحدة و انتقل إلى كولكاتا و انشا هناك صحيفة "الهلال" الأسبوعية باللغة الأردية سنة ١٣٣٠هـ ثم قام بإنشاء صحيفة "البلاغ" ثم صحيفة "الإقدام" الأرديتين. و بدأ رحلاته إلى البلاد الإسلامية و العربية إبتداء من عام ١٩٠٨م فسافر إلى تركيا و البلاد العربية ليزيد من معرفته في العلوم الدينية بالإضافة إلى الحركات الدينية و الوطنية في هذه البلاد يتعرف على تطوراتها و زعماءها و شخصياتها المشهورة، اتصل برجال الأزهر و وقف على آراء الأفغاني و محمد عبده التي كانت تؤثر تأثيرا شديدا في نفوس المصريين آنذاك، و كانت هذه الآراء قائمة على الدين الحنيف متجهة إلى تحرير البلاد و استفاد من الأفغاني و محمد عبده الطرق التي يجب أن يسلكها في توعية الشعب و بث روح الثورة و التمرد في نفوسه ضد المستعمرين. و ذلك من خلال الدروس و الصحف و الخطابة، و الحقيقة هي أن كان لهؤلاء الزعماء الثلاثة اثر كبير في نهضة المسلمين و إيقاظ فكرهم في بداية القرن العشرين. و من مصر اتجه إلى تركيا ثم إلى بلاد أوربا حيث زار فرنسا و تعرف على نهج الحياة فيها

و رجع إلى الهند إثر نبأ مرض والده و لم يكمل رحلته إلى لندن. و كان لهذه الرحلات اثر بالغ في تكوين شخصيته، و كان يعالج الأمور بالنظر إلى المنفعة الجماعية لا إلى المنفعة الشخصية و بذل جهودا جبارة في دعوة المسلمين إلى الوحدة و ذلك عن طريق مجلاته و صحفه التي كانت تصدر كلها في اللغة الاردية إلا واحدة و هي مجلة "الجامعة" التي كانت تصدر في اللغة العربية و التي تحدثنا عنها من قبل. و كان يكتب بها باسلوب عربي فصيح قليل الكلمات، كثير المعاني و كان في بعض الأحيان يكتب افتتاحية بعض الجرائد الاردية في اللغة العربية، مثال ذلك نجده في جريدة "البلاغ" حيث كتب يقول:

"مضت الأيام و الاعوام، و توالت القرون و الأجيال، علت فيها الأقوام و سقطت، و ارتفعت و انحطت، و خسرت و كسبت، و تخالفت و اتفقت، و ذاقت من الأيام آلاما، و تقلبت في السعادة و الشقاء أياما، فانتقل البشر من حال إلى حال، و ارتقوا من طور إلى طور حتى إذا ما ارتقت عقولهم بتقلب الزمان، و استعدوا لتحكيم العقل و التفكير في مدركات الحس و الوجدان بعث منهم خاتم النبيين، و منحه دين الإسلام الذي هو كالعقل العام و المرشد الحكيم لجميع الانام، الموافق لهم في كل مكان، المنطبق على مصالحهم في كل زمان، فهو للقبائل السانجة كالمربي الحكيم و للشعوب الراقية كالإمام الحكيم". (٧)

إسهامه في الصحافة العربية في الهند:

لم تكن شخصية مولانا أبو الكلام آزاد شخصية محلية أو إقليمية و إنما كانت شخصية عالمية. إذ كانت نظرته في السياسة العالمية ثاقبة، فكان ينظر

إلى الإستعمار الإنجليزي نظرة بغض و عداء. و كان يود أن يستأصل جذور الأخطبوط البريطاني ليس من أرض وطنه الهند فقط بل و من جميع الدول المستضعفة و كان يريد من الأمم الإسلامية و الشعوب الشرقية الأخرى أن تتحد تحت راية واحدة ضد سيادة الغرب. و كان يعبّر عن هذه الوحدة وحدة الأمم الشرقية و الإسلامية بكلمة الجامعة.

و بما أن اللغة العربية كانت لغة أم مولانا أبو الكلام آزاد فكان طبعاً ينطق بها و علّمها أبوه قراءة و كتابة في صباه و صيقلها هو بدراسته و قراءته لها و هذبها بعد ذهابه إلى مصر. فصحافة باللغة العربية ليست بأقل مستوى من صحافته باللغة الأردية. و نحن الآن سنذكر بإسهاب ما قام به من إسهامات و خدمات في الصحافة العربية بإصدار مجلتين في اللغة العربية إحداهما مجلة "الجامعة" التي صدرت في كولكاتا في عام ١٩٢٣م و الأخرى مجلة "ثقافة الهند" الصادرة في نيو دلهي في عام ١٩٥٠م بعد استقلال البلاد.

مجلة "الجامعة":

في عام ١٩١٢م شجع البريطانيون حاكم بلاد الحجاز آنذاك الشريف حسين بن علي على أن يثور و يتمرد على الخلافة العثمانية التركية، و بهذا تربع حاكم الحجاز سالف الذكر كملك على عرش الحجاز. و ما نتج عنه أن ازدادت أحوال الحجاز و البلاد العربية سوءا. و في الوقت الذي كان ينظر فيه مسلمو الهند إلى الخلافة العثمانية التركية بنظرة تقدير و احترام. فانزعجوا و تطاحنت الأفكار في أذهانهم بسبب سيطرة البريطانيين على الحجاز، و كان للشريف حسين بن علي دور كبير في هذا. و في هذه الغضون كان مولانا أبو الكلام آزاد حبيسا في السجن بعد اعتقاله من قبل الإنجليز في عشرين ديسمبر سنة ١٩٢١م. و رغم هذه الظروف و الأحوال النفسية التي عاصرها في سجنه حزن كثيرا على ما حدث

في الحجاز، و من هنا عزم على إصدار مجلة باللغة العربية في الهند لتلعب دورا هاما في تغيير الرآى العام ضد حاكم الحجاز، و لتكون مساندة للخلافة العثمانية التركية، و ذلك بعد إطلاق سراحه في السادس من يناير عام ١٩٢٣م. و كان آزاد من المؤمنين بالاثر الكبير للقلم في تغيير الراى العام، و كان القلم سيف بتار. فاصدر ابو الكلام آزاد مجلة عربية باسم "الجامعة" في اول ابريل عام ١٩٢٣م من مدينة كولكاتا. و كانت مجلة نصف شهرية اي تصدر مرتين في الشهر الواحد. و كان مولانا آزاد يقوم بنفسه بالإشراف عليها، و كانت جمعية الخلافة المركزية الهندية تقوم بالإنفاق عليها، و فوض إدارة تحريرها إلى الشيخ عبد الرزاق مليح آبادي الندوي. و سوف نتحدث عنهما بالتفصيل في الصفحات القادمة.

و كانت المجلة تهدف إلى إتحاد جميع المسلمين بصفة خاصة و جميع الامم الشرقية بصفة عامة، كما كانت تهدف إلى تعارف مسلمي شبه القارة الهندية بالبلاد العربية و الإسلامية و الشرقية، و مساندة بعضهم البعض لكى يتمكن المسلمون في كل مكان و في بلاد الشرق من النهوض و التقدم، و حصولهم على الحرية. و من اهدافها كذلك توجيه الامم الشرقية إلى إصلاح احوالهم. كما هدف ابو الكلام آزاد بهذه المجلة إلى ان تكون بمثابة مسرح لتبادل الآراء و الأفكار بين الكتاب و المفكرين و العلماء في جميع البلاد الإسلامية و العربية، حتى يتمكن المسلمون في كل مكان من التوحد بدلا من التشتت الذي اصابهم، و لكى يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا، لا تهزهم قوة العالم كلها، و لكى يكون لكلمتهم وزن و قيمة لدى الامم الأخرى.

و كانت "الجامعة" مثل المجلات العربية الأخرى السابقة في الهند تهدف إلى نشر اللغة العربية و تطويرها في بلاد الهند و الأفغان. لانها اللغة المقدسة للمسلمين في كل بقاع الارض، كما ان حياتهم الإجتماعية الاخلاقية الدينية

مـربـوطـة بهذه اللغة. و قامت هذه المجلة بدور كبير في إحياء العلوم الإسلامية و نلك عن طريق نشر المقالات الدينية و العلمية و الدراسات الثقافية لعلماء نلك الـعـهـد، و كـذلـك عن طـريـق البحث و التحقيق، كما قامت بدور مؤثر في إيقاظ الـمـسـلـمين و تعريفهم بأمور دينهم و مبادئه الطيبة، كما ادت واجبها في إثارة شـعـور و إحساس المسلمين بمسؤليتهم و واجباتهم السياسية. و اثارت الـحمية الإسـلامـيـة داخـلـهم بالرغم من ان عمرها لم يطل و لم يمتد الزمان بها كثيرا إذ تـوقـف إصـدارهـا لـسـوء أوضـاعـهـا الإقـتـصـادية كما حدث لكثير من الجرائد و الـمجلات العربية غيرها بالهند. فتوقفت في مارس عام ١٩٢٤م. و هذا بالإضافة إلـى انـه قـد انـتهت و سقطت حكومة الشريف حسين بن علي في الـحجاز، الذي كـان السبب الاول في تأسيس هذه المجلة. و لسوء الأحوال الإقتصادية كذلك كان يـضـطـر أن يـصـدر عددي الشهر في مجلد واحد. إذاً يمكن القول بأنها كانت في كثير من الاحيان تصدر مرة واحدة في الشهر.

و تـعـتـبـر هـذه الـمـجـلـة مـصـدرا مـهـما للمعلومات المتعلقة للأوضاع الـسـيـاسـيـة خـلال عـامي ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤م في الهند و تركيا و الـحجاز، و من خلالها اطـلـعـنـا أيـضـا عـلـى حركة تحرير الهند من المستعمرين الإنجليز و مظاهرها آنـذاك. فـهـي بمثابة مصدر تاريخي و سياسي في آن واحد. و رغم انه مكتوب في فاتحة عددها الاول:

"إن الـمـجـلـة تـرحب بكل لغة من اللغات الشرقية الكبيرة مثل الـفارسية و الـتركية و الهندية (الاردية)(٨) بالإضافة إلى المقالات باللغة العربية، إلا انه لم يـنـشر بها أي مقال في هذه اللغات الثلاث و بقيت مجلة عربية خالصة. و يمكن أن يـكـون الـسـبـب فـي نلك يرجع إلى وجود الكثير من المجلات في هذه اللغات الـشـرقـيـة الـمـذكـورة آنفا، و قد قام أبو الكلام آزاد نفسه بإصدار مجلات أردية

اخرى فلم تكن هناك حاجة ماسة لنشر مقالات في هذه اللغات بها، هذا بالإضافة إلى أن اللغة العربية قد زاد الإقبال عليها في معظم البلدان الإسلامية آنذاك.

و قد شن الشريف حسين بن علي حاكم الحجاز حملة على مجلة "الجامعة" و ذلك لمناهضتها له في معظم اعدادها. و ليس هذا فحسب بل نشر الكثير ضدها في مجلته الحكومية "القبلة" و كان يستهزئ بابي الكلام ازاد و يكتب اسمه أبو الكلاب بدلا من ابي الكلام. و حول هذا يقول الشيخ عبد الرزاق مليح آبادي مدير مجلة الجامعة":

"كانت مجلة "الجامعة" مجلة ثورية تتسم بالجراة و الاسلوب النقدي اللاذع لذلك كانت سببا في هجوم كثير من المسلمين على الشريف حسين بن علي مما اثار حميته ضد المجلة و نسي منصبه و بدا يسبها في مجلته الحكومية "القبلة" التي كانت تتميز بقراءها المثقفين حيث كتب فيها مستهزءاً بابي الكلام آزاد "ابو الكلاب" و كانت لغته لغة ركيكة و كنت قد سمعته يخطب في مكة المكرمة ففهمت من أسلوبه ان الكلمات التي نشرت في مجلة "القبلة" ضد "الجامعة" كان مما أملاه هو نفسه على كاتبه"(٩).

و لذلك نجد ان الشيخ عبد الرزاق مليح آبادي نقد الشريف حسين بن علي و اعماله الدنيئة كثيرا و ذلك لخروجه علي الخلافة الإسلامية و محالفته لبريطانيا(١٠). هذا بالإضافة إلى ما كتبه عبد الرزاق مليح ابادي في اعداد المجلة عن الشريف حسين و انتقاده الشديد له حينما ارسلت الحكومة المصرية كعادتها من قبل، البعثة الطبية المصرية و لم يقبلها الشريف حسين

وردها إلى مصر ثانية (١١). و ذلك أسفر عن تدهور العلاقات بين الحجاز و مصر. و نفهم مما كتبه عبد الرزاق عن هذا الموضوع أيضا أن فعلة الشريف هذه أثرت كثيرا في نفوس مسلمي الهند الرافضة لما كان يقوم به الشريف حسين. و شنت الصحافة العربية الهندية حملة واسعة النطاق على الشريف حسين مؤيدة و مساندة للحكومة المصرية. و كذلك كتب عبد الرزاق العديد من المقالات ذات الأسلوب النقدي اللاذع على الشريف حسين حينما أساء في معاملته مع حجاج مسلمي الهند بصفة خاصة و مع عامة الحجاج الآخرين بصفة عامة. و كانت لكتابات و مقالات عبد الرزاق هذه الأثر البالغ في إثارة حمية مسلمي الهند ضد النظام الحاكم في بلاد الحجاز آنذاك أعني الشريف حسين. و في هذه الغضون كان أبو الكلام آزاد كثير الترحال في أرجاء الهند لا يستقر به المقام و ذلك لجهوده المضنية لكي يتمكن أهل شبه القارة من نفض وطأة الإستعمار عن بلادهم. و لذلك كلف شيخنا عبد الرزاق القيام بأعباء المجلة كلها كما كانت تعجبه مقالات عبد الرزاق التي ينتقد فيها النظام الحاكم في الحجاز. و بالرغم من هذا كانت المجلة تصدر حسب خطته و تحت رعايته.

ذكرنا آنفا أن أبا الكلام قد أسس مجلة "الجامعة" لكي يتمكن من خلالها إثارة الحملة ضد الشريف حسين محالف البريطانيين. و بالفعل نجحت المجلة في الإطاحة بحكم الشريف حسين و حول هذا يقول الشيخ عبد الرزاق:

"كانت هذه الحركة (تاسيس الجامعة) صحيحة و في الوقت المناسب، فبسببها اضطرب مسلمو الهند بصفة خاصة و عامة المسلمين الذين قاموا يناهضون الشريف. ليس هذا فحسب بل شجعت ابن سعود الذي كان يقدم القدم و يؤخر الأخرى خوفا من الإنجليز، و حيث أوضحت له المجلة انه من حيث السياسة الدولية

ان الإنجليز لا يستطيعون مساعدة الشريف، و لهذا تشجع ابن سعود و شمر عن ساعده و طرد الشريف حسين و أسرته من بلاد الحجاز. و بهذا انتهت مهمة مجلة "الجامعة" التي أسست من اجلها و هي تحرير الحرمين الشريفين من الشريف حسين. لذلك توقف إصدارها"(١٢).

و كانت مجلة "الجامعة" تنبه البلاد العربية إلى اهميتها في الساحة السياسية الدولية، و تحثهم على الإستقلال من المستعمرين و أن الهند تساندها في كل ما يعتريها من مشاكل. فكتب مدير المجلة مقالة تحت عنوان "مسلك الجامعة و العرب":

"إن العرب في رأينا خير امم الارض، و هم مخ العالم الإسلامي و قوامه، لا صلاح له إلا بصلاحهم و لا مستقبل له إلا بقيامهم، و ذلك لأسباب لا تخفى على احد ممن درسوا تاريخ المسلمين و حالتهم الماضية و الحاضرة درسا صحيحا. هذه الحقيقة هي التي تسوقنا معشر مسلمي الهند إلى الإهتمام بالمسئلة العربية اكثر من غيرها من المسائل الإسلامية و هي التي حملتنا (الهنود) على أن لا نستريح إلا بعد أن نرى هذه المسئلة قد حلت حلا صحيحا(١٣)".

و حول مساندة مسلمي الهند للدول العربية قال آزاد في خطبة له (١٤) القاها في اجتماع لمؤتمر الجمعية الوطنية الكبرى:

"إن الهند تؤكد لمصر و سوريا و فلسطين و العراق و مراكش و جميع الأقطار الشرقية إن مئات الملايين من القلوب بالهند متطلعة لنجاحها و فوزها، و أن الهنود باجمعهم يتمنون لها الحرية

و الاستقلال كما يتمنونها لانفسهم ... إن الهند تؤكد لجميع سكان البلاد العربية بأن صون استقلالهم و حفظ بلادهم من النفوذ الأجنبي لا يزال اليوم أيضا غاية كبيرة بجهادها كما كان في سنة ١٩٢٠م الماضية و أنها لا تزال تجاهد و تناضل حتى لا يبقى في أي ناحية من البلاد العربية ادنى نفوذ للأجانب."(١٥)

و بسبب دعوة مجلة "الجامعة" لجمع كلمة المسلمين و اتحادهم، و اهتمامها بإصلاح حال المسلمين و توجيههم إلى ما فيه الخير لهم نالت إعجابا و قبولا شديدين لدى الشعوب و الحكومات في البلاد العربية و تركيا و أفغانستان و البلاد الإسلامية الأخرى. و حول هذا كتب المدير في افتتاحية عددها الخامس و السادس و السابع يقول:

"و لكننا نستلفت نظر زملائنا إلى أن المقصد العظيم الذي اتخذته "الجامعة" نصب عينها ليس مقصدا محليا و خاصا بقوم دون قوم، بل هو عام و مشترك بين سائر العالم الشرقي و الإسلامي على سواء، و لا يتأتى لها النجاح فيه إلا إذا أيدتها الصحافة في جميع البلاد الشرقية و الإسلامية، و رغبت فيها الناس مرة بعد مرة، فالجامعة لا تقنع من رصفائها بمجرد التقريظ و الكلمات اليسيرة، بل نرجو منها الرفاقة و الإعانة و الإشتراك في العمل. و إنما يكون هذا إذا اهتمت هي بمقاصدها و كررتها في مقالاتها و فصولها مرارا كثيرة. و أملنا قوي في الصحافة المصرية و التركية خاصة، و ستكون إن شاء الله عند ظننا بها."(١٦)

و نشرت المجلة في عددها ٥ ـ ٦ ـ ٧ في الصفحة ٣٦ رسالة لقارئ من مصر و التي يبين فيها مدى إعجابه بهذه المجلة نقتطف منها هذه العبارة:

"قرات فصلا يأخذ باللب في "الأخبار" الغراء بعنوان "مصر و الهند" و موضوعه مجلة الجامعة الهندية التي تنشر في كولكاتا باللغة العربية و ما نشرته هذه من المقالات القيمة. و قد وصفت المجلة بانها "دعوة حارة إلى الجامعتين الإسلامية خاصة و الشرقية عامة و وسيلة تعارف بين الأقطار الإسلامية و الشرقية كافة و أداة تعاون بين هذه الأقطار على توحيد مساعيها للنهوض."

كما مدحها خليفة المسلمين في تركيا إذ أرسل رسالة إلى مدير الجامعة يقول فيها:

"قد تشرفنا بمطالعة العدد الاول من مجلة "الجامعة" الغراء، و قد تبين لنا من المقاصد المهمة التي تلخص خطة "الجامعة" ان العالم الإسلامي سيجني منها فوائد عظيمة، و لهذا فإنني إمتثالا لما أمر به صاحب المقام المعلا الذي أتشرف بالإنتماء إليه من قرب، و بصفتي فردا مسلما، أسأل الله تعالى ان يكتب لكم التوفيق، كما انني أرى من واجبي أن اتبع ما تنشره مجلتكم الغراء بكل اهتمام."(١٧)

هذا بالإضافة إلى الرسائل العديدة الأخرى التي تلقتها المجلة من قرائها من مختلف البلاد العربية و الإسلامية تبين إعجابهم بها. و نجد مثل هذه الرسائل منشورة على صفحات الجامعة في العدد السابع عشر.

مجلة ثقافة الهند:

بعد ما استقلت الهند عام ١٩٤٧م و شكلت اول حكومة بها و التي كان نهرو رئيسا لوزراءها و راجندرا براشاد رئيسا للجمهورية. و عين مولانا ابو الكلام آزاد

وزيرا للمعارف في هذه الحكومة المستقلة، الذي أدرك الفوائد الكثيرة و النفع العظيم المترتب على التبادل الثقافي بالبلدان الاخرى، لذا قام بتاسيس المجلس الهندي للروابط الثقافية بدلهي الجديدة لكى تتبادل الهند من خلال العلاقات الثقافية و الفكرية مع دول العالم خاصة مع مصر و تركيا و بقية البلدان الإسلامية في ٢١ أغسطس عام ١٩٤٩م و الذي من أجله عقد مؤتمرا في دلهي حضره عدد كبير من سفراء الدول الأخرى. و قال آزاد في كلمته الإفتتاحية:

"لقد كانت علاقات الهند من فجر التاريخ المدون إلى أواخر عهد الإمبراطورية المغولية، مع جيرانها ـ الغربيين منهم و الشرقيين على السواء ـ حبية متينة. و إننا لنتذكر تلك البعثات الدينية و الثقافية التي توجهت إلى البلاد البعيدة كالصين و اليابان من جهة و إلى مصر و آسيا الصغرى من جهة أخرى. و كذلك نتذكر العلاقات التجارية الوثيقة التي كانت تسوق رجال التجارة من الهنود إلى بلاط بيزنطية، أو تسير بهم إلى البقاع الشرقية الجنوبية من آسيا، ليعمروها أو ينشؤا فيها مراكز للثقافة الهندية. و إنا لما نفكر في أن كل هذا وقع في زمن كانت وسائل المواصلات قليلة، إن لم تكن بدائية، ليزداد عجبنا لم تم من توثيق العلاقات إذ ذاك. و قد وهنت هذه الأواصر بفقد الإستقلال السياسي، فاصبحت روابطنا مع جيراننا ضعيفة متقطعة. قد كنت مقتنعا بضرورة العمل السريع الحاسم لسد هذا الخلل، فقررنا بعد حصولنا على استقلالنا مباشرة تنفيذ المشروع الذي أمامنا الآن"(١٨).

و رأس آزاد هذه الإدارة و انشا مجلة علمية ثقافية الا و هي "ثقافة الهند" و التي تقوم بدور كبير في توطيد العلاقات مع الدول العربية، كما تلعب دورا بارزا في نشر اللغة العربية في الهند. و حول هذا قال آزاد:

"و ارى ان المجلس (مجلس الهند للروابط الثقافية) ينبغي له ان ينشيء لنفسه دارا للكتب و يفتح قاعة للمطالعة و يستعد لإصدار مجلات، و نشر مطبوعات مؤقتة أخرى"(١٩). لذا اهتم بالمجلة سالفة الذكر التي يصدرها المجلس أربع مرات في السنة و لا تزال تصدر بإنتظام حتى يومنا، و يقراها القراء في الهند و البلاد العربية بصفة خاصة، و تصل إلى البلدان الأخرى من خلال السفارات و مراكز الثقافة الهندية بها. و اسس آزاد مجلة "ثقافة الهند" الفصلية هذه و بدأ إصدارها في مارس عام ١٩٥٠م حسب فصول السنة الاربعة و لكنها بعد ثمانية أعوام من إصدارها بدأ تصدر كل ثلاثة اشهر دون النظر إلى الفصول الأربعة.

تهتم "ثقافة الهند" بحضارة الهند قديمة كانت او حديثة كما تولى الإهتمام بالثقافة التي تمثلها الهند قديما و حديثا. لذا يجدر بنا القول بان هذه المجلة لها دور كبير في تثقيف الشعوب العربية و البلدان الاخرى باثار الهند القديمة و فلسفتها و لغاتها و آدابها المتعددة و نفيس كتبها. كما أنها خير وسيلة لاطلاع العرب على الإتصال الوطيد الذي كان بين الهند و الدول العربية في الزمن القديم. و هكذا تمهد هذه المجلة الطريق لتطوير العلاقات الثقافية و بالتالي علاقات الصداقة بين الهند و البلدان العربية الأخرى. حول هذا كتب مديرها عبد الرزاق في افتتاحيتها:

"و إن هذه المجلة ـ ثقافة الهند ـ اصدرها مجلس الهند الثقافي، لتقوم مع القائمين باعباء الرسالة الثقافية، و تسعى لخلق جو حبي اممي، و ذلك باهتمامها بالبحوث و الشؤون العلمية الادبية و الثقافية، و نشر ما كان للهند من الحظ العظيم الفذ في الثقافة، و ذكر ما هي تبذل من المساعى في هذا المضمار(٢٠)."

و كانت المجلة لا تكتب على غلافها أو في أي مكان آخر اسم مدير تحريرها، و لكن من خلال الإطلاع على أعداد المجلة المختلفة و على حياة آزاد و عبد الرزاق تحققنا من أن عبد الرزاق كان أول مدير لها. و السبب في عدم كتابة اسم المدير في ذلك الوقت يدل على أن هذا الجيل كان لا يهتم بمثل هذه الأمور و إنما كان يركز اهتمامه على إصدار المجلة بلغة صحيحة و بتضمنها مقالات جيدة. و تولى شمعون طيب علي لوكهند والا إدارة التحرير لـ "ثقافة الهند" خلفا لعبد الرزاق من عام ١٩٥٩م حتى عام ١٩٧١م و نائب منابه الأستاذ الدكتور سيد مقبول أحمد و الذي استمرت فترة إدارته إلى عام ١٩٨٤م تقريباً و خلفه الأستاذ نثار أحمد الفاروقي حتى عام ١٩٩٥م.

و تهتم "ثقافة الهند" بالإضافة إلى اهتمامها بالحضارة الهندية قديما و حديثا بنشر مقالات في الأدب و السياسة و التاريخ و الإجتماع. و تعتمد المجلة في كثير من مقالاتها على الترجمة من اللغات المختلفة كالإنجليزية و الأردية و الهندية و البنغالية وغيرها من لغات الهند الأخرى إلى اللغة العربية و تهتم المجلة ايضا على ان تشتمل على مقالة أو مقالتين على الأقل كتبت أصلا في اللغة العربية أي تكون غير مترجمة، و علاوة على الهنود قام بعض الكتاب و المفكرين العرب بكتابة مقالات تتعلق بالحضارة الهندية أو بآدابها و لغاتها و نشرها على صفحاتها. و هذا يدل على أن المجلة تبدي الإهتمام بالتبادل الثقافي و الفكري من خلال و بتضمنها مقالات جيدة و يعتبر الشيخ عبد الرزاق اللكهنوي الندوي من رواد الصحافة العربية في الهند في القرن العشرين و هو من مواليد قرية مليح آباد التابعة لمدينة لكهنؤ و أكمل تعليمه في دار العلوم التابعة لندوة العلماء في لكهنؤ. و تولى شمعون طيب علي لوكهند والا إدارة

التحرير لـ "ثقافة الهند" خلفا للشيخ عبد الرزاق من عام ١٩٥٩م حتى عام ١٩٧١م و ناب منابه الأستاذ الدكتور سيد مقبول احمد و الذي استمرت فترة إدارته إلى عام ١٩٨٤م تقريبا. و خلفه الأستاذ الدكتور نثار أحمد الفاروقي حتى عام ١٩٩٥م و استطاع أن ينقل إلى العالم العربي الثقافة الهندية التي اسهم فيها الهنود و خاصة الهنود المسلمون على طريق أفضل. و لكن لأسباب فنية تأخرت بعض أعداد عام ١٩٩٤م و ١٩٩٥م في الظهور. و قام الأستاذ زبير أحمد الفاروقي بإدارة التحرير بعده و صدرت المجلة بانتظام و على مستوى جيد إلى بداية العام ٢٠٠١، و قد استدارت إدارة التحرير إلى دورتها الكاملة إذ تولى الأستاذ سيد ضياء الحسن الندوي إدارة تحرير المجلة الذي هو أيضا ينتسب إلى مديرية لكننو التي كان الشيخ عبد الرزاق المدير الأول للمجلة ينتسب إليها و كذلك اكمل تعليمه في دار العلوم التابعة لندوة العلماء مثله.

و تهتم ثقافة الهند بالإضافة إلى اهتمامها بالحضارة الضدية قديما و حديثا بنشر في الأدب و السياسة و التاريخ و الإجتماع و تعتمد المجلة في كثير من مقالاتها على الترجمة من اللغات المختلفة كالإنجليزية و الأردية و الهندية و البنغالية و غيرها من لغات الهند الأخرى إلى اللغة العربية و تهتم المجلة أيضا على ان تشتمل على مقالة أو مقالتين على الاقل كتبت اصلا في اللغة العربية أي تكون غير مترجمة، و علاوة على الهنود قام بعض الكتاب و المفكرين العرب بكتابة مقالات تتعلق بالحضارة الهندية أو بآدابها و لغاتها و نشرها على صفحاتها و هذا يدل على ان المجلة تبدي الإهتمام بالتبادل الثقافي و الفكري من خلالها صفحاتها أو بالفاظ اخرى لا تدعو فقط للتبادل الثقافي بين الهند وغيرها من البلدان العربية بل تعتبر هي نفسها نموذجا لهذا التبادل و الاحتكاك الثقافي.

فـمن خلال هاتين المجلتين الجليلتين يبدو للعيان إسهام مولانا أبو الكلام آزاد فـي الـصـحـافة العربية في الهند و في ضوء المقالات التي نشرت في هاتين المجلتين يظهر ان مولانا أبو الكلام آزاد كم كان يهتم بالصحافة و كم كان يؤمن فـي تـغيير الراي العام بهذه الوسيلة. و كيف استطاع هو أن يغير النظام الحاكم في الـحـجـاز فـي الـعـقـل الـثـالث من القرن العشرين عن طريق إصدار مجلته "الجامعة" و كم كان يؤمن بعظمة الثقافة الهندية و كيف استطاع هو أن ينقلها إلى الآخرين.

الهوامش:

١ ـ Illustrated Weekly of India 22 February 1955

٢ ـ أبو الكلام آزاد لعبد المنعم النمر الدكتور نقلا عن India wins Freedom ص: ٤١.

٣ ـ ثقافة الهند عدد سبتمبر ١٩٥٨ ص: ٢٤

٤ ـ صحافت مولانا أبو الكلام آزاد، د. أبو سليمان شاهجان فوري ص: ٣٣

٥ ـ نفس المصدر ص: ٩٧

٦ ـ نفس المصدر ص: ٩٩

٧ ـ افتتاحية البلاغ الجمعة ٤ من المحرم ١٣٣٤هـ/ ١٢ نوفمبر ١٩١٥م.

٨ ـ صحافت مولانا أبو الكلام آزاد لـ "أبو سليمان شاهجان فوري" ص: ١٨٤

٩ ـ نكر آزاد ص: ٣٩٩

١٠ ـ نجد مثل هذه المقالات في العدد التاسع و العاشر من المجلد الأول ص: ٢٥، من مجلة "الجامعة" و التي توجد في مكتبة الجامعة الملية الإسلامية.

١١ ـ جريدة "الجامعة" العدد ٩ ـ ١٠، ص: ٣٦

١٢ ـ نكر آزاد ص: ٣٠٤

١٤ـ يظهر انه هذه الخطبة كانت بالاردية و لكن المجلة نشرتها باللغة العربية.

١٥ـ مجلة "الجامعة" العدد ١١ـ ١٢ ص: ٦

١٦ـ نفس المصدر العدد ٥ـ ٦ـ ٧، ص: ٢

١٧ـ نفس المصدر العدد ٥ـ ٦ـ ٧، ص:١

١٨ـ مجلة ثقافة الهند ج: ١ عدد ١، ص ٤ـ ٥

١٩ـ المرجع السابق ص: ٦ـ ٧

٢٠ ـ المرجع السابق ج/١، عدد ١، ص: ٢



المزايا الأسلوبية
في كتاب حجة اللّه البالغة للإمام ولي اللّه الدهلوي

بقلم: د/ عبد الماجد القاضي

يتصدر إسم الشيخ الإمام ولي اللّه الدهلوي قائمة النوابغ القلائل الذين انجبتهم بلاد الهند ممن يتجمل بهم تاريخ المعرفة و الثقافة الإسلامية، ولم يكن الإمام الدهلوي رجلا عاديا في مواهبه و عطاءه في شتى مجالات الثقافية و الحياة الحضارية و شهد التاريخ أنه أصبح رمزاً لتغيير مجرى الأحداث في مجال العلم و المعرفة و اعتبر التاريخ شخصيته مَعْلما يفصل ما بعده بما قبله.

تتجلى عبقرية الإمام الدهلوي في غير مجال واحد، فنراه نقطة انطلاقة كبرى إلى إعادة بناء الصرح الحضاري على الأسس القديمة و لكن بمنظور جديد و برؤية و بصيرة نفاذه. كانت شخصيته تجسيدا لحركة قوية تهدف إلى خلع الجمود و الركود و العقم الفكري الذي توارثه المجتمع المسلم لأحقاب من الانحطاط و التخلف و الانسحاب من مجالات الحياة.

ولد الإمام الدهلوي في ١٧٠٣م و نشا في عصر التفكك السياسي و الاضطرابات و الحروب الداخلية في العالم الإسلامي، و غاية الأمر أن الخلافة العثمانية كانت فقدت سيطرتها و مهابتها، و تشتت شمل الإمبراطورية المغولية الكبرى في بداية القرن الثامن عشر الميلادي و فقدت الكثير من هيمنتها على هذه البلاد و ضعف سلطان المغول و نشات دويلات على انقاض هذه الدولة

العظيمة، و في الوقت ذاته كان الاستعمار الغربي قد بدأ يدب إليها دبيبا من وراء استار و تحت شعارات خادعة و استمر شبه القارة الهندية في مهب عواصف التغيير الهوجاء حتى غيرت كثيرا من ملامح خارطتها، فمحت حدودا و أضافت حدوداً أخرى و بدلت صبغتها و جاءت بتشكيلة مغايرة تماما.

في جو هذه الهزائم المتراكمة على الساحة السياسية و قلة الإستقرار و الخواء الروحي و المعنوي بسبب توقف أمة العطاء عن عطاءها و في حين بدا كانه نضب معين قدراتها و تقلص ظلها و توقفت مسيرة تقدمها. امسى العالم الإسلامي صورة بائسة للإنهزامية و الإستسلام و الخضوع. و تقدر جلالة الدور الذي مثله الدهلوي في هذا السياق بجراته التي حملته على ان يقف مواقف التحدى امام وطاة الأوضاع و يشق طريقه في خضم هذه الظروف المدلهمة و يعكس إتجاهه بدل أن ينساق وراء الزمان و إرادته و إملاءه. و تتمثل ماثرته الكبرى و المعيته في إيقاظ روح المبادرة في تلك الأوضاع الرهيبة. و لا يسع المجال للخوض في خدماته في إحياء التراث الإسلامي و إسهاماته القيمة في إثراء المكتبة الإسلامية.

إن نظرتي كمتطفل على مائدة الادب و اللغة تتابع و تراقب الخصائص اللغوية و التعبيرية التي تحلت بها آثار الإمام الدهلوي و تقتصر هذه الدراسة في إطار مساهمته في إنعاش اللغة العربية بأصالتها و نقاءها في ربوع هذه البلاد، و لا نستطيع أن نقدر مدى حيوية دوره ما لم نلاحظ خلفية الثقافة العربية في بلادنا، فلم ترسخ قدم العربية في بلاد الهند في اي مرحلة من مراحل التاريخ لانها لم تكن قط لغة الدولة الرسمية، غير انها كانت موضع الحب و الاحترام لدى الجميع لتضمنها على كنوز الشريعة السمحة و لكونها مفتاح مصادر الشريعة الإسلامية، و تناوبت التركية و الفارسية صفة اللغة الرسمية في

مـخـتـلف المراحل، و مع ذلك لم تزل العربية حائزة على مكانة المرجعية تدرس و تـدرّس لـتسهيل الوصول إلى مصادر العلوم الإسلامية و لكنها بقيت في معظم الأحـيـان حـرفـا مكتوبا بدل أن تكون صوتا مسموعا، و المستجدات و التطورات الـلـغـوية التي ظهرت في بلاد العروبة كانت تنعكس على وضعها في هذه الديار، فـكـان إضـمـحـلالـها هنا دليلاً على ضعفها هناك و بذلك كان مثله كالغدير الذي يـسـتـمـد من الـبـحـر فـإذا ركد ماء البحر و فسد فما ظنك بالروافد و الغدر التي تستقى منه.

و الـمزايا الأسلوبية المدهشة التي نلقاها لدى الدهلوي هي نفسها التي آل إلـيـهـا الأمـر و اسـتـقر عليها الأسلوب العلمي الرزين بعد عصر النهضة العربية الـحـديـثـة الـتـي اسـهم في تحقيقها جمال الدين الأفغاني و الشيخ محمد عبده رفـاعـة الـطـهطاوي و الشيخ رشيد رضا وغيرهم. و ربما يمكننا القول بأن تاريخ نـهـضـة الـعـربـيـة في الهند أقدم منه في مصر و البلدان العربية الأخرى، و تعد مـفـخرة بحق و جدارة. و رغم أن الدهلوي لم يكن مجاله اللغة أو الأدب بالمعنى الشائع الأعم، لكن الذي يثير الإعجاب و يجعل مساهمته ذات أهمية قصوى لدى الـبـاحـثين في تطور الأساليب اللغوية و ظواهر التطور اللغوي هو انه تربى على الـنـمـط الـتـقـلـيـدي الـجـاف و الـف سـمعه بتلك المحسنات و البدائع اللفظية الـمـصـطـنـعـة الـتـي درجت عليها اللغة العربية في أيام تخلفها و تراجعها من مـجـال الـعـطـاء و إثراء الحضارة البشرية، فدرسته أعماله من الناحية اللغوية تـكشف عن سليقته الأدبية البديعة التي مكنته من الإعراب عن المعاني الدقيقة و الـمـفـاهـيم اللطيفة بأبلغ اسلوب و أفصح عبارة و اتسعت له آفاق القول حتى تـنـاول بـالـبـحـث الـنـصـوص الواردة في أبواب العقائد و العبادات و المعاملات و الإحـسـان و الـتـزكـيـة و الـمـقـامات و الأحوال و طرق كسب المعاش و التبرع و الـتـعـاون و تـدبـيـر المنزل، و الخلافة و القضاء و الجهاد و الأطعمة و الأشربة

و اللباس و الزينة و آداب الصحبة و الاجتماع و بحث اخيرا في الفتن و الملاحم و اشراط الساعة و استعرض السيرة العطرة بالإيجاز. و قام بتحليل هذه المواضيع بأسلوب يمتاز بالدقة و الرصانة حيث لا تنقطع فيه صلة هذه القضايا و الاحكام بالحياة و المدنية و علم الأخلاق و تتجلى من خلال تحليله المزايا الحضارية التي انطوت عليها الشريعة السمحة و ما لها من صلة قوية بالسعادة البشرية و ما يترتب من آثارها على الحياة الإنسانية و بذلك احتوت كتاباته على لباب علم الإجتماع و السياسة و الحقوق و الأخلاق.

و هكذا تتنوع الأغراض و المواضيع التي يعالجها لكن الاسلوب و التناول لا ينحط من مستواه الرفيع و مثل هذه القضايا الدقيقة التي طرحها الدهلوي كثيرا ما تند عن متناول التعبير الوافي لأنها بطبيعتها ادخل في الفلسفة و التجريد و من ثم تتعقد مسئولية الكاتب في دفع مظان اللبس و سوء التفاهم. نقتبس على سبيل المثال عبارته في بيان حكمة الحج فيقول: "كما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ليستميز الناصح من الغاش و المنقاد من المتمرد و ليرتفع الصيت و تعلو الكلمة و يتعارف أهلها فيما بينهم فكذلك الملة تحتاج إلى حج ليتميز الموفق من المنافق و ليظهر دخول الناس في دين الله افواجا، و ليرى بعضهم بعضا فيستفيد كل واحد ما ليس عنده إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة و التراثي". (٢)

و يقول في الاحتساب و النية " إعلم أن النية روح و العبادة جسد و لا حياة للجسد بدون الروح، و الروح لها حياة بعد مفارقة البدن و لكن لا تظهر آثار الحياة كاملة بدونه". (٣)

و هكذا تدل مؤلفاته على ان مقدرته اللغوية المتميزة كانت دوما تواكب فكره و استمر هذا العطاء الفكري و الثراء اللغوي و ساهم في إخراج مجموعة من الآثار العلمية المجيدة التي تضمن تخليد ذكراه على مدى الأجيال و القرون.

بتحليل الآثار العلمية و الأدبية التي ورثناها من أيام ركود الحياة الإبداعية يبدو أن الكاتب لم يكن يتملك زمام اللغة و لم يكن يقودها و يتصرف فيها حسب المعاني و إنما كانت الانماط اللغوية المتعجرفة تتحكم في تسيير المحتوى و توجيهه. و بالنسبة للهند كان الدهلوي أو ل من سخر اللغة لتخدم المعاني التي جاشت في خاطره فكانت طوع يمينه يتصرف فيها لتكون أداة النقل و التبليغ و وسيلة التفاهم و تخليد الأفكار في حيز الأسلوب العلمي الرصين الذي لا يطغى فيه اللفظ على المعنى و لا تتعدى فيه المعاني على اللفظ و يتحقق القسط و الإتزان بين الشكل و المضمون.

اما كتابه "حجة اللّه البالغة" الذي لم يحظ للأسف الشديد العناية و الدراسة المركزة التي نقضى بها جزءا من الدين الذي لم تزل الأجيال المتلاحقة تماطل في قضاءه و عسى أن يغتفر التاريخ ما فرطنا في جنب هذا الكتاب العظيم. فقد وصفه الشيخ العلامة الندوي في قوله "لم يؤلف كتاب - في حدود علم المؤلف، و في اللغات التي يعرفها - في تاييد أي ديانة من الديانات و تفسيرها اللبق الحكيم و فلسفتها الجامعة المتناسقة كهذا الكتاب في منزلته و مكانته، و إن كان قد ألف فيه فإنه ليس بين ظهراني العلماء و الباحثين في الدنيا العلمية المعاصرة". (٤)

فالكتاب ظرفا و مظروفا أي محتوى و أسلوبا يتطلب دراسة و عكوفا لاستخلاص المعرفة و الفوائد الجمة التي انطوى عليها فإذا كان غاية في علم الأسرار و الحكم فإنه كذلك غاية في حسن الأسلوب و تسلسله و سيلانه مع الطبيعة و يلاحظ كذلك أن الكتب العلمية عادة ما تصاب بجفاف التناول و العرض و تفشل في جنب عناية الدارس و استمرارها لكن كتاب "حجة اللّه البالغة" خير نموذج لمتعة الأسلوب العلمي الذي يتحلى بالظرافة و الإبداع.

يقول الأستاذ محمد اسماعيل الندوي "قد اعاد الدهلوي إلى اللغة العربية رونقها و صفاءها و حيويتها و قوتها في التعبير و البيان بعد أن تكبدت من الخسائر على ايدى المتلاعبين و العابثين". (٥)

و تتلخص مزاياه الأسلوبية في النبوغ الفكري و الإبداع اللغوي و إذا اختزلنا هذا في كلمة واحدة فيمكننا أن نعبر عن هذه الظاهرة بالأصالة. و في نهاية المطاف ليست الأصالة كلمة تعبر عن الميزة الأسلوبية فحسب و إنما هي منهج و راسلة نستوحيها من تراث الإمام الدهلوي و تزداد.

الهوامش:

١ ـ انظر الشيخ أبو الحسن الحسني الندوي: الإمام الدهلوي: سلسلة رجال الفكر و الدعوة، الجزء الرابع دار القلم كويت ط/١، ١٩٨٥م ص ١٨٦

٢ ـ الإمام ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة، دهلي، كتب خانه رشيديه ط/١ ١٣٧٣هـ ص ١/٧٦

٣ ـ نفس المصدر السابق ٨٣/ ٨٤ ج ٢

٤ ـ الإمام الدهلوي للشيخ الندوي: ص ١٦٨

٥ ـ محمد اسماعيل الندوي: تاريخ الصلات بين الهند و البلاد العربية، دار الفتح للطباعة و النشر، ط/١ ب ت ص ١١٥



خواجه باقي بالله النقشبندي و بنوه

بقلم: الفقيد المفتي نسيم أحمد الفريدي   تعريب: ا. د. نثار احمد الفاروقي

لقد عثرتُ على اقتباسٍ من "تاريخ اسرارية" تأليف السيّد محمد كمال السنبلي بيدِ مؤرخ بلدةِ "أمروها" الشيخ محمود أحمد العبّاسي، و هو يشتمل على اكثر من مائة صفحة، و يزيد اصلُ النسخة عن خمس مائة صفحة، و ان هذا الكتاب تاريخ قيّم للقرن الحادي عشر، و لكن مما يؤسف له أنه لم يُطبع حتى الآن، و هناك نسخةٌ لهذا الكتاب في مكتبة رضا برامفور، و أخرى في مكتبة ندوة العلماء لكننو، و الثالثة في بلدةِ سنبهل (ولاية اترا برديش، مديرية مراد اباد)، عند رجل، و الرابعة كانت في بلدة "امروها"، و الاغلب انّها قد نُسخت في زمنِ المؤلّف، بل نَسخَها المؤلف نفسه و لكنّها لا تُوجد في "امروها" هذه الايام.

و كان السيّد محمد كمال السنبهلي ينتمي إلى السّاداتِ الواسطية، و كان من أحفاد الشيخ شرَف الدين السُهروَرْدي الواسطي ثم الأمروهي المعروف "شاهِ ولاية"، و استوطن آباؤه و أجدادُه في سنبهل، و كتب المؤلف أحوال آبائه بكل شرح و بسط في آخر كتاب "أسرارية". كان السيّد محمد كمال اديباً بارعاً، و شاعراً مُجيداً، و مؤلفاً جيّداً، و نطلع على كتاب آخر له باسم "جمع الجميع" في فن المعارف و الحقائق، و بعد مطالعة دقيقة لتاريخ اسرارية يترجح لدى الدارس ان تكون له مؤلّفات أخرى خافية عن اعين الناس، و انّ اسلوبَ صاحب

الاسـراريـة طـريفٌ جذّابٌ يتشعب فيه الحديث من الحديث، و إذا اريد ان اشّبهه بـرجـل فـي عصرنا الراهن، فيكون هو الشيخ مناظر أحسن الكيلاني رحمه الله، فـمن بـدائـع الـشـيـخ الـكـيـلاني أنه يتصدّى لـحديثٍ آخر يتذكّره في غضون تلك الاحـاديث التي كان يتحدث عنها، و يظفَر القاريء بالمعلوماتِ المفيدةِ الزاخرة. فـلـو طُبـع كـتـابُ اسـرارية ليحظى المؤرّخون بمعلوماتٍ نافعةٍ جيدةٍ كثيرةٍ عن اعـلامِ الـقـرن الـحادي عشر للهجرة. و لا اتّصدّى الآن لذكرها لانه يطُول جداً، بل الـذي يَهُمّنـي الآن هـو ذكـر ابـنـاء الـخـواجـة بـاقـي بالله النقشبندي الكابلي ثم الـدهـلـوي. وردت أحوال ابنيه في هذا الكتاب بالتفصيل، و يتشرّف مؤلّف الكتاب نـفـسـه بـكـونـه مريداً للشيخ و رفيقا في حضره و في بعض اسفاره. و لذلك انه كتب أحوال الشيخ عبد الله المعروف بخواجة خُرد (١)، بشيءٍ من التفصيل و انه ذكـرَ مـلـفـوظاته و كلماته في عدة مواضيع قائلاً: "قال أستاذي و شيخي" و ذكر فـي غُضـون كـتـابـه بـكـثرة عباراته المليئة بالمعارف و الحقائق، و القى ضوءاً، و ذكـر خوارقَ عاداته التي شاهدَها، و بَيّنَ أحوال وفور حبّه و هيامه لاستاذه بدون تـصـنُّع، و يدُلّ هذا الكتاب على طولِ مدة إقامة الخواجة خُرد في بلدة "امروها" خـلال فـتـرة تـغـلـب العشق عليه، و ورد فيه مجيء الخواجة خُرد إلى سنبهل قبل سنـةٍ، و نـعـرف من مـطـالـعة هذا الكتاب ان السيّد كمال لم يكن مريداً لشيخه فـحـسـب، بـل كان مُصاحباً و رفيقاً خاصاً له. و لو لم يذكر تاريخَ ميلاده و وفاته و أخـبار مرضِه مع ذكر اليوم و الشهر، في كتابه اسرارية، مع التفاصيل الاخرى، لم يُعرف ذلك من مصدر آخر.

و مـا يـسرّنـي و يسعدُني ان اقدّم امام القارئين بعض أحوالِ ابناء خواجة بـاقي بالله الضرورية مُقتبسا من تاريخ اسرارية، و ما توفيقى إلا بالله. و قصدتُ الإيـجـاز في تذكرة خواجة خُرد بالنسبة إلى تاريخ اسرارية لئلا يطولُ المضمون،

و لـما كانت تذكرةُ اخيه الشيخ عبد الله المعروف "بخواجة كلان" (٢) مـختصراً، لـم تـمسّ الـحاجة إلى مزيد من اختصارِها. و أهدفُ من هذه التذكرة إلى الامور التالية:

(الـف): ان يـعرف الناس مرتبةَ خواجة خُرد و خواجة كلان رحمهما الله العلميّة و التاريخية و الرُّوحية.

(ب): و غـيَّرَ الـمـؤرخـون عـامة أسماءهما و قلبوا، و بعضهم لم يهتمُّوا اهتماماً كاملاً في ذكر أحوالهما، و أخطأ بعضهم و نقدم في هذه التذكرة إن شاء الله الاحوال و الاسماءَ الصحيحة.

(ج): و يـحـظى كِلاهما بسبب كونهما من الذين وُجّهت إليهم رسائلُ الشيخ أحمد الـسـرهـنـدي، الـمـلقب بمجدد الألف الثاني رحمه الله تعالى، فأردتُ ان ادوّن احـوالَه فـي ضوءِ تاريخِ أسرارية يسهل لمن يُريد القيام بالبحث في مـجـال الـرسائل فيما بعد، و لذلك اكتب بعد ذلك أحوال الشيخ تاج الدين الـسـنـبـهـلـي، و الميرزا حُسام الدين، و الشيخ الهداد بمساعدةِ أسرارية وغـيره من الكتب. و قبل أن اتعرض لما جاء في أسرارية عن حياته اريد أن أصـرح بـمـا قـال عـنـهـمـا الـمؤرخون الآخرون، و بما صدر منهم من الاخـطـاء. و قـبـل كل شيء لا بُدّ من الانتباه إلى أن السيد كمال السنبهلي ذكـر أن اسـم الابن الاكـبـر لخواجة باقي بالله، كان عبد الله، و كان يُلّقب بـخـواجـة كلان، و اسم ابنه الاصغر كان عُبيد الله و يُلقّب بخواجة خُرد و هـو صحيح لأنه أخبر بذلك صاحب سرّ لخواجة خُرد و مصاحبٌ قديمٌ، و نـرى أن الـمـؤرخين أحدثوا التغيير ايضا في اسمهما، و من الـمـلحوظ أن الاخـوين كـانـا من امـين مـخـتـلـفتين و يتضح ذلك بمكتوبات الإمام

الـربـانـي الـشـيـخ أحـمـد الـسـرهـنـدي، و زُبدةُ المقامات لـمحمد هاشم الـكـشـمي، و مآثر الكرام للسيّد غلام علي آزاد البلجرامي، و لكن الأسف انّ صاحبَ اسرارية لم ينكُر ذلك، و تمّ تاليفُ كتاب اسرارية سنة ١٠٦٩ من الهجرة، و قبل ذلك الّف الشيخ محمد هاشم الكشمي (التلميذ المسترشد لـلـشـيـخ أحـمـد السّرهندي) "زبدة المقامات" و ذكر فيه أحوالَ خواجة باقي بالله، ثم أحوال ابنائِه، و قدم ذكر الخواجة عبيد الله من بين ابنائه و قـال عـنـه: إنّه اكـبـر ابنائِه، ثم كتب تاريخ ميلاده ماخوذاً من "مثنوى خواجة باقي بالله". و هي في سنة ١٠١٠ للهجرة، و لكنّه لم ينكُر في الباب اسمَ الاكـبـر، بـل ذكـر اسـم الاصـغـر مـنـهم، و يمكن ان يُقال انه خطا الـكـتـاب، و لـكن ماذا يُقال عما ذكره الشيخ محمد هاشم فيما بعدُ بان الـخـواجة رأى في المنام زاهدا و هو يقول: سيُولد عندك ولد فسمّه عُبيد الـلـه عـلى إسم الـخواجة عُبيد الله الاحرار النقشبندي، و كتب ايضا انّ الـخـواجـة ذكـره فـي "مـثـنـوياته"، و لكن لا يُوجَد ذلك في الأبياتِ التي ذكـرهـا. و الـنسخة الّتي بينَ يدي من مثنوي خواجة باقي بالله (٣)، من "مـطـبـعـة مـحـمـودي" بـحـيـدر آباد دكن، و قد وضع هذا العنوان لتلك الابـيـات. لـقد وُلد الخواجة محمد عبد الله و الـخواجة محمد عبيد الله فـي سـنةٍ واحدةٍ و يدُلّ ترتيب اسمائها في ذلك دلالةٌ واضحةٌ انّ الخواجة عـبـد الـلـه اكـبر ابنائِه، لا الـخواجة عبيد الله، و تصغيرُ عبيد الله ايضاً يُدلّ على ذلك، ان عبيد الله ابنه الثاني لا اكبر أبنائه.

قـد جـاء ذكـرُ إبـنـه الثاني في "زبدة المقامات" تحت عنوان "خواجـة عـبـد الله سلّمه" و كتب فيه "إنه الإبن الثاني للخواجة (باقي بالله)" و لـم يكتف بـذلـك بـل اضـاف قائلاً: "إن الاكبر من امّ و الاصـغــــر من امّ اخرى" فانه يعتبرُ

عبد اللـه اصغر اولاده، و عُبيد الله اكبر، و كما مرّ ان الاكبر هو مَن كان اسمه يُطابق باسمِ الخواجة احرار، فلم يبق هناك ايّ التباس، و اتّضح انه ليس من خطا الكاتب، و قد كتبَ الشيخ الكشمي ذلك بعد فهم، و يُرى انّ الشيخ الكشمي لم يُمكن له تمييز بينهما بسببِ قلّةِ التفاوت بين اعمارِهما. و ذكر اللّقاء من احدِهما، و يُمكن انه لقى من الآخر ايضاً مرةً او اكثر. و زار صاحبُ "زبدة المقامات" زاويةَ المجدّد الألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي سنة ١٠٣١ من الهجرة، و كان الولَدَين يُقيمان على عتبته قبل سنة ١٠٣١هـ بقليل. فلا غروَ انّ يحدثَ ايّ تغيير في الأسماء، و لكنّه كلُّ ما ذكر عنهما هو مملوء بالمعلومات، و ذكر فيهِ اشياء لم يرد ذكرُها في أسرارية، و لأنه لا ينطبقُ الاسمُ على المسمّى لذلك يقعُ الالتباس، و الأشياء التي يذكرها عن عبد الله يُمكن أن يكون لعبيد الله و كذلك على العكس. فإنه يجعلُ الخواجة عبد الله الابن الثاني، و يذكر له صفةً تُوجد في الخواجة عبيد الله و هي كونه "ثائر الراس و اعتقاده بوحدة الوجود".

و الشيء الذي اردتُ ان أبيّن هنا ان صاحب زبدة المقامات اخطأ في تعيين اسمائهما، و خلّط احوالَ احدهما بالآخر، و ما كنتُ اهدفُ ان استوعِب جميعَ الأحداث، و لا يسع هذا المضمون لذلك ايضاً. و الآن اريد ان أسترعي انتباه القُرّاء إلى رسائلِ الشيخ أحمد السرهندي (مكتوبات الإمام الرّباني) ليتطلّعوا من خلالها على مكانةِ الابنين و ميزاتهما على وجهٍ أصح، و هناك الرسائل التالية في كلٍّ من المجلّدات الثلاثة مُوجّهة إليهما:

(١): رسالة رقم ٦٩٢ باسم خواجة عبد الله و عبيدِ اللّه في بيان بعضِ العقائدِ الكلامية (المجلّد الأول).

(٢): رسالة رقم ٢٣ باسم الخواجة محمد عبد الله في بيانِ اتّباعِ السنة (المجلّد الثاني).

(٣): رسالة رقم ٣٥ باسمِ بيرزاده محمد عبد الله ردّاً على استفتاء (المجلّد الثاني).

(٤): رسالة رقم ٥٩ باسمِ بيرزاده محمد عبد الله ردّاً على استفتاء (المجلّد الثاني).

(٥): رسالة رقم ٥٦ باسم خواجة محمد عبد الله و هو يتاسّفُ على الصحبة الماضية (المجلّد الثالث).

(٦): رسالة رقم ٦٠ باسم خواجة محمد عبد الله و هو يتاسّفُ على الصحبة الماضية (المجلّد الثالث).

(٧): رسالة باسم محمد عبيد الله (المجلّد الثالث).

اما الرسائل الّتي وردَ فيها اسماءُ الابنين و هي كما يلي:

١ ـ المجلّد١	رسالة رقم ٢٢٩	باسم ميرزا حُسام الدين
٢ ـ ايضاً	رسالة رقم ٢٦٧	ايضاً
٣ ـ ايضاً	رسالة رقم ٢٧٣	ايضاً
٤ ـ المجلد٢	رسالة رقم ٣٦	ايضاً
٥ ـ المجلد٣	رسالة رقم ١١٥	ايضاً

وجدتُ ذكرَ ابناءِ الخواجة في الرسائلِ المذكورةِ، و من الممكن ان يُوجد ذكرُهما في ايِّ رسالةٍ اخرى. و يقول الشيخ محمد هاشم الكشمي ان الشيخ احمد السرهندي قال مرّةٍ: لو لم يكن ابن الخواجة (عبيد الله الّذي ظنّه الكشمي عبد الله) متحررا و متوسعا جدا لمنحته إجازة الطريقةِ النقشبنديةِ ليكونَ خليفةَ والدِه و يشتغلَ بإفادةِ الطالبينَ. (٤)

اما المباحث التي تحتويها هذه الرسائل فهي تحتاجُ إلى بابٍ خاصٍ و لقد اوصى الخواجة باقي بالله تلميذه البارع الممتاز، الشيخ أحمد السرهندي (مجدّد الألف الثّاني) أن يُراعي أبناءَه و يستخبرهم، و كانَ الابنان رضيعين لما تُوفي الخواجة باقي بالله، و قام الشيخ السرهندي بمراعاتِهما طولَ حياته بسبب تلك الوصية الّتي أوصاها الخواجة باقي بالله، و اسكَنهما عندَه، و لما غادر إلى دهلي قام بتربيّتهما الميرزا حُسام الدّين، و كان الشيخ السرهندي يُرسل إليهما التّوجيهات النافِعة و كذلك يؤكّد، و هو في سرهند أن يقوم الميرزا حُسام الدين بمراعاتِهما و يُلقّنهما دائماً بالعقائدِ الصحيحةِ و الأعمالِ الصالحةِ و إتّباع السنّةِ النَبوية.

و يُنبّه الشيخ السرهندي إذا سمعَ أمراً يخالفُ السنّة، و يخاطب ابنيه بغايةٍ من الشفقةِ و الرافةِ كما يظهرُ من رسائله و يتأسف في بعض الرسائل على الصحبةِ الماضية. و ذكر كذلك حينما كنتما صغيرين القيتُ عليكما "التوجّه"(i) و يشكُر الميرزا حُسام الدين قائلاً بأنه تولى مسئولية تربيةِ الأبناءِ، و هكذا اعطاهُ الطمانينة، و يسترعى انتباه الميرزا إلى أن يمنعَ عن بعض الأمُورِ التي تخالفُ مذهبه بشدةٍ و قوّة.

اما الرسالة رقم ٢٦٦ في المجلد الاوّل، فهي رسالةٌ مستقلةٌ إلى ابناءِ الخواجة باقي بالله، و هي اجدر بأن تُسمّى بـ "كتاب العقائد" و هي تشتمل على ٢٦ صفحة، و كتب في آخرها: "إنّي ارسلتُ إليكم هذا الكتاب لاني تأخرتُ في المجيء إلى دلهي، و اقراه أمام الميرزا حُسام الدين من البداية إلى النهاية على سبيلِ الاعتبار، و السّلام. و يكتبُ إلى الميرزا حُسام الدين في رسالةٍ أخرى: "ستقرا تلكَ الرسالة الّتي وجّهتُ إلى الابنين".

و ينبغي لي ان انكرَ ان مباحث العقيدةِ التي عَرضَها القاضي ثناء الله الباني بتي (ii) في بدايةِ كتابه الشهير "مالا بُدّ منه" اكثرُها ماخوذةٌ من هذه الرسالةِ، فانّه نكرَ بعض العباراتِ الكاملة او لخصّها في الكتاب، يتيسر فهم هذا الجزءِ لذلك الكتاب في ضوء هذه الرسالة للشيخ السرهندي، و قال فيها الشيخ غلام علي الدهلوي: "إن هذه الرسالة لها فوائد كثيرةٌ و ينبغي ان توزّع صُورها بينَ الناس". (iii)

و الآن اريدُ ان اكشفَ القِناعَ عن تلك الاخطأ التي صدرت في اسماءِ الابناء في الرّسائل المطبوعة في موضعٍ او موضَعين، و كتب في فهرس المجلّد الثالث للمكتوبات المطبوعة بمطبع احمدي نلهي.

رسالة رقم ٧١ باسم محمّد عبدِ الله و كتب على صفحة ١١٧ حيثُ توجد هذه الرسالة "إلى ابن الشيخ خواجة محمد عبيد الله"، و يبدو انّ ذلك صحيحٌ لانّ الخواجة عُبيد الله هو الذي يطرحُ مثلَ هذه الاسئلة لانها تُلائم طبيعته و الآن انظروا إلى "ماثر الكرام" تاليف العلامة غلام علي آزاد البلجرامي و هو يقول: "خواجة عُبيد الله المعروف "بخواجة كلان" رحمه الله، و الخواجة عبد الله المعروف "بخواجة خُرد رحمه الله" و هنا أيضاً انقلبت الاسماء، لانّ بعض المؤلّفين المتقدّمين فعلوا مثل نلك، و علاوةً على نلك فالإبن الذي يجعله مؤلف ماثر الكرام "خواجة كلان" إنّه تُوفي بتاريخ ١٨ جمادى الأولى ١٠٧٤ للهجرة، كما هو مسجل، مع انّ "خواجة خُرد" تُوفي في هذا التاريخ، و اما "خواجة كلان" فإنّه تُوفيّ سنة ١٠٧٣ من الهجرة، قبلَ وفاةِ خواجة خُرد بسنةٍ كما يتّضح نلك من كتابِ أسرارية فيما بعد.

و العجب انّه يكتبُ في ماثر الكرام انّ خواجة خُرد وُلد في ١٠١٠ للهجرة، و هو صحيح، و إنّه تُوفي سنة ١٠٧٥ للهجرة، و كتب ايضا في الحروف "خمس

و سبعين و تسعمائة" فلا يصح الانتساب إلى خطأ الكاتب، و ذكر العلامة آزاد البلجرامي نفسَ اليوم و الشهر الّذي ذكره السيّد كمال السنبهلي في صدد تاريخ وفاةِ الخواجة، و لكن الشهر هو جمادى الاولى، و لا جمادى الثانية، و عيّن السيّد كمال السنبهلي السّنة الشهر و اليوم، الذي تُوفي فيه الخواجة، و من الواضح انّه اكثر ثقةً و اعتباراً في هذا الصدد.

ذكر صاحبُ "مآثر الكرام" خواجة خُرد اثناءَ تذكرةِ المحدّث السيّد محمد البلجرامي، و ذلك يدُلُّ على اشتغاله بالعلم، و مكانته العلمية الرفيعة، و يذكر انّ المير السيّد محمد البلجرامي سافر إلى دلهي سنة ١٠٦١ هـ طلباً للعلم و المعرفة، و قرأ المطول للتفتازاني على الخواجة عبدِ الله المعروف بخواجة خُرد بن الخواجة باقي بالله النقشبندي رحمهما الله، و اخطأ هنا ايضاً في تعيين الاسم، و لكن اللقب يدُلُّ على انّ الخواجة عُبيد الله المعروف بخواجة خُرد كان أستاذاً للسيّد محمد مبارك المحدّث البلجرامي.

و ذكر الشاه ولي الله المحدّث الدهلوي رحمه الله في كتابه "الانتباه في سلاسلِ اولياءِ اللّه":

"إنّ هذا العاجز الفقير يرتبط بوالده من حيثُ الصحبة و البيعة و التلقين و الاشتغال و الإجازة و الخرقة، و هو معروفٌ بالشيخ عبد الرحيم رحمه الله، اما والدي فهُو يرتبط بأربعة مشائخ و هُم:

(١) السيّد عبد الله الاكبر آبادي (٢) مير أبو القاسم (٣) خواجة خُرد.

(٤) مير نو ر علي خلف مير ابي العُلى.

هنا اكتفى الشاه ولي الله بلقبِ خواجة خُرد، و يظهر ان الابنين كانا معروفين بلقبهما، و لذلك ذكرَ العلامة البلجرامي صراحةً ان الذي كان استاذاً

للسيّد محمد مبارك المحدّث كان ملقّباً بخواجة خُرد، و إنما وقعَ الخطأ في الإسم كما صدرَ ذلك من الآخرين ايضاً.

و الآن اذكر اقتباساً من "انوارِ العارفين" تأليفُ الشيخ محمد حسين المراد آبادي، فإنه يذكُر خواجة محمد عبد الله بعد ما ذكر الخواجة باقي باللّه، حيث يقول:

"ذِكرُ الخواجة محمّد عبد الله الذي هو معروف بـ "خواجة كلان"، فانظروا إلى صاحبِ أنوار العارفين كيف ذكر خواجة كلان بعدَ ما ذكرَ الخواجة باقي باللّه مباشِرةً، و يذكر ايضاً انّه كان ابناً لخواجة عُبيد الله الاحرار، و يظهر من ذلك انّه لم يكن يعرِف أن الخواجة كلان كان من ابناءِ الخواجة باقي باللّه. و الآن انظروا تحقيقَ مؤلّف "مزارات أولياى دهلى" (مقابرُ أولياء الله في دلهي) فيهما، فإنه يكتبُ عن "خواجة كلان": " انه كان اكبر ابناء الخواجة باقي باللّه، فلم اعثر على كتابٍ يخبرُني عن مكانته العلمية و الروحية، و كيفية حصوله على الخلافة، و مهما كان، فإنّه كان صالحاً و ابن صالحٍ و لم اعرف تاريخ وفاته ايضاً". و يكتبُ عن "خواجة خُرد" ايضا: "إنّه كان أصغر ابناءِ الخواجة باقي باللّه رحمه اللّه، و تُوفي والدُهما عندما كانا صغيرين، و تُوفي سنة ١٠٤٢ للهجرة في عهدِ السلطان المغولي شاهجهان". و للّه درّ هذا التحقيق، فلم يكد يعرف اسمَى خواجة خُرد و خواجة كلان، و لم يعرف تاريخَ وفاةِ الاكبر، و لا كيفيةَ حصوله على الخلافة، و ذكر سنة وفاةِ الاصغر، و لكنّه اخطأ في ذلك حيثُ كتب سنة ١٠٤٢ من الهجرة مع انّ الصحيح ١٠٧٤ من الهجرة، و كان ذلك عهد سلطنةِ محي الدين اورنج زيب عالمغير بن السلطان شاهجهان. و كذلك تحقيقُ شوكت فهمي مؤلف "اولياى هند و باكستان" غير موثوق به، فإنّه يقول: "كان لخواجة باقي باللّه والدان حقيقيان سوى أولادهِ الروحانيين، و كان اكبرهما

خـواجـة عُبـيـد الـلـه، و كان غنياً بالعلومِ الظاهرة و الرُّوحية، و اما الثّاني فكان الـخـواجـة مـحـمـد عبد الله، و كان أصغر من الخواجة عبيدِ الله باربعة شهور، و كـان من زوجـتـه الاخـرى، و كان عالماً كبيراً، و يملك ذوقاً غير عادي للتصوُّف. و اكتسب خواجة محمد عبد الله مدةً طويلةً من فيوضِ الشيخ احمد السرهندي مـجدّد الألـف الـثـانـي الـروحـيـة، حتى حصـــل على مكانةٍ مخصوصـــة في السلوك. (iv)

فـانـظـروا انّه يُكرّر نـفـس الـكـلمات الّتي مرّ ذكرُها، و لم يتحمّل مشقّة الـبـحثِ و الـتحقيق. و إذا نظرنا أحوالهما في ضوءِ "تاريخ اسرارية" وجدنا كما يلي:

"إنـه كـان من أبـنـاءِ خـواجـة باقي باللّه، و صحب الـخواجة حُسام الدين، و كـان عـالـمـاً فـي العلومِ الظاهرة و الباطنة، و يتحلّى بأوصافٍ و أخلاقٍ عاليةٍ، فـضـيلة و براعة يعجزُ عنه البيان، و إنّه ألف عدة مؤلفات قيّمة، منها: "طبقات حُسـامـي" و هـو مـنـسوبٌ إلى شيخه حُسام الدين، و تمّ تاليفُه في مدة قصيرة، و فـيـه كثيرٌ من الأسرارِ و الـحقائق، و أحوال كثير من مشائخ السلاسل بكل شرحٍ و تـفـصـيلٍ، و لـو فُصلّـت احـوالُ جـمـيع المشائخ فقط من هذا الكتاب، لتكونُ مـجلّدات عديدة، و إن هذا الكتاب يكفي لأصحابِ جميع السلاسل". يقول مؤلّف "اسـراريـة": مرّةً دعاني خواجة كلان عندَه و اراني هذا الكتاب بشفقةٍ، فتحيّرت بضخامتِه و سررتُ به كثيرا. و إنّه صبر و استقام دائماً، و كان الكرم و الجود من طـبـيـعتِه، و الـفـقـر من شيمته. و قال شيخي خواجة خُرد: "كان له من العمر سـنـتـان و أربـعـة شـهـور، عـندما تُوفي خواجة الأكبر (باقي باللّه)". (٢٥ جمادى الـثانية ١٠١٣ للهجرة). و ذكر الشيخ محمد هاشم الكشمي انّ "خواجة الأكبر كان يـقـول إنّه بلـغَ إلى هذا ولد مني شيءٍ" و تُوفـي خواجة كلان بعدَ تاليفِ اسرارية

(١٨ جمادى الثانية ١٠٧٣ للهجرة) و يقعُ قبره قريباً من قبر شيخه خواجة حُسام الدين أحمد. و زار شيخي خواجة خُرد هذه السنّة (١٠٧٣ للهجرة) بلدة سنبهل، و اقام عندي سنةً و يوماً، و عندما رجع من سنبهل إلى دهلي، اقامَ الليلةَ عند الشيخ منوّر بنِ عنايةِ الله، الّذي كان من احفادِ الشيخ اللّهدية، اصيب باذىً في رِجله بسبب فساد السُلّم، و طارت روح خواجة كلان نفسَ الليلة، و لذلك كتبَ شيخى إليّ رسالةً و فيها: "لقد كسرَ القدرُ رِجلي و يدي كليهما".

لمحة عن الخواجة عبيد الله المعروف بخواجة خُرد:

يقول السيّد كمال السنبهلي انّه كان من مشائخي، وُلد ٦ رجب ١٠١٠ للهجرة، و يُستفاد تاريخُ ميلاده من كلمة "رضي" و بشّر الخواجة باقي باللّه بولادته، و إنّه ورثَ الثروةَ الرُوحية من بطنِ امّه، و لما بلغ من عمرِه ستة شهور، جاءوا به إلى خواجة الاكبر، و قالوا لهِ ان يدعوَ له ليكونَ مثل جدّه للامّ الشيخ يعقوب رحمه الله، في المنصب و المكانة. قال خواجة باقي باللّه : "إنّه يكون مثل الشيخ عبد الرحمن جامي رحمه الله". و بدات تظهر منه آثارُ الهدايةِ و الولايةِ منذ ذلك اليوم، و حفظ القرآن الكريم في صغره، و حضر في خدمة الشيخ احمد السّرهِندي، لما بلغ من عمرِه أربعةَ عشر سنة، و انكشفت فه حقيقة التوحيد في اولِ اللقاء و ولع الشيخ السّرهِندي بطبيعته السليمة، و استعداده اللطيف، يجعله افضل من بين سائرِ منتسبيه، و يثني عليه ثناءً عاطراً و منحه إجازة الطريقة النقشبنية بيده الخاص بعد اللّقاء الثاني، ثم ودّعه، و انكشفت له علومُ الصوفية و معارفُ هذه الطريقة بعد ايام قلائل، و إنه ألّف كثيرا من الكتب في علمِ التوحيد و المعرفت، في اللغتين العربية و الفارسية، حتى لو كان ابن العربي حيّا حينذاك لقال: مرحباً يا خواجة خُردا لا يوجد مثلك في العالم اليوم. و إنّه حصل مكانةً رفيعةً في صحبةِ خواجة حُسام الدين، و استفاضَ من

الـخـلـيـفـةِ الـثـاني لوالده، المعروف بالشيخ الهداد، و حصل على إجازة السلسلةِ الـنـقشبندية القادرية، و تلقى في الرؤيا تلقين أسرارِ الذات، و ذهب إلى كثير من الـمـشائخ الكبار و استفادَ منهم، و كان متشوقا و متطلعا منذ غُرة شبابه، و بدت لـه احـوالٌ عجيبةٌ و اسرارٌ غريبةٌ في هذه المجال، و ذكر صاحب "أسرارية" عدّة وقـائـع رائـعة تبعثُ على الاستغراب و الدهشة، و أتركُ هذا الجزءِ متعمدا، و كان لـه عـديـد من الـمـريـدين بـلغوا إلى مرتبة الكمال و البراعة، و إنه بلغ في العلم و الـعـمـل و الخُلق و الكرم و الفقر و الفناء مبلغاً قلّما وصلَ إليه الأولياءُ. و يكون دائـمـاً غـارقـاً فـي بـحـرِ الـوحـدانـيـةِ و الفناء المحض، و كان له شغفٌ بالدرسِ و الـتـدريـسِ و الـشـعـرِ و العلومِ المتداولةِ، و لو كان الشعرُ أتفه شيء بالنسبة إلى بـراعـتـه و فـضـائله الأخرى، و لم يطلع أحدٌ على أحواله و أسراره الباطنة إلا ما شاء اللّه.

مبايعةُ السيّد كمال السنبهلي على يدِ خواجة خُرد:

يـقـول: عندما بلغتُ من العمر خمس عشرة سَنةً، زُرتُ أولاً أستاذي خواجة خُرد فـي الـمـسـجدِ الجامع الفيروزي، و صلّيتُ خلفَه صلاة العصرِ، و كان عمره عـنـدئـذٍ سـتـة عـشر سنةً، (إنّه ذكر تاريخ ولادته: ١٢ ربيع الاول سنة ١٠١١ للهجرة) و كان خواجة خُرد أكبر مني ثمانيةَ شهور إلا اربعة أيام. و سألني بعدَ ما فرغ من الـصـلاةِ: من أين انـت. فـاخـبـرتـه عن الـحـقيقة، و إنّه قيّد قلبي بكلامه الحلو، و اغـرقـنـي فـي بـحـر حُبّه، و تغيرت حالي منذ ذلك اليوم، و أينما رأيتُه من بعدُ، ولعتُ به، و كنتُ في صراع القربِ و الفراقِ مدةً طويلةً، و كانت تظهر مني أحوال عـجيبة في تلك الفترة، و لما مضت على هذه الحالة عشر سنوات، التمستُ منه أن يـلـحقني بالطريقةِ النقشبندية، فقبِل ذلك، و بعد أيامٍ قال لي: قُل لا إله إلا اللّه مـائـة الـف مرة ففعلت كما امرني، كنت أول من بايع على يده و قال ذلك خواجة

ايضاً غير مرّة، و شاهدتُ بعد ذلك احوالاً و وقائع عجيبةً، عند حضوره و غيبُوبته. و كان مرشدي يقول لي حقائقَ السلوك و الأمُور المختصة به، و لو اردت ان استوعبها ليكون الكتاب ضخماً، و ذكرت معظم هذه الامور في كتابِ "جمع الجوامع". (٧) و كان مرشدي ذاتَ ليلةٍ فرحاً جداً، فقال لي على سبيل المحبّة: ينبغي أن يتغلغل ذكري الله في وجودي و أن تبدُو آثاره في كل شَعرة، فقد كنتُ اشعر في البدايةِ أن ذكره تسرب في كل جزءٍ من أجزاءِ جسدي.

رسالة تعزية من خواجة خُرد رحمه اللّه:

استشهد والدُ السيّد كمال في وقعةِ يوم السبت ١٢ رجب سنة ١٠٣٩ هـ، و دفنَ في منطقةِ خوشاب، و جرح السيّد كمال أيضاً في نفس الوقعة، فكتب خواجة خُرد رسالة تعزيةٍ مؤثرةٍ إلى السيّد كمال، و أرى من المناسب ان اقدّم ترجمتها هنا:

"وفّقنا اللّه الصبرَ على المصائب و البلايا، و ان نعرف أنها من عندِ الله تعالى، و لا يُجزع، بل يرضى بها، و قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنُ الانبياء اشدُ الناسِ بلاءً، ثم الاولياء، ثم الآخرون تدريجياً، و لو كانت وفاة والدك مصيبةً عظيمةً و لكن لا مفر منها، فانصروه بالدعاء له، لانه احسن من الهمّ و توكلوا على اللّه في جميع شئونكم و اعمالكم، و اشكروه على ما يمنحكم، و التمسوا من اللّه عزّ و جلّ ان يُنجيكم من كل شيءٍ سوى حبه إيّاه، و يقيّدكم بحبه، حيثُ لا يبقى لكم ايُ علامةٍ، و إذا نظرتم فانظروه و إذا بحثتم عن شي ما ابحثوا عنه، و حاولوا ان يخلو قلبكم عن ذكر غير الله، لانه راس مال لهذه التجارة، و أما البراعات الباقية إذا توفرت فيها، و إلا فلا باس، و لا تحزنوا و لا تتركوا الصبر و حاولوا ان لا يصدر منكم أمر يخالف الشريعة الإسلامية، و هذا الذي ينفع في

الـقـبر و اما الذي تدخرونه سواء فهو ربح إن لم يخالف و خسارة إذا كان مخالـ
و إذا اسـتـطـعـتـم فصلوا صلاة الليل و هي صلاة التهجد. و التفتوا إلى اللّه م
أعـمـاق قـلوبكم و تصوروا بأن القلب بمثابة البيت و الحبيب الحقيقي مقيم فـ
و تـصوروا بانكم جالسون على عتبة البيت في انتظار الحبيب و ينبغي أن يتصـ
هـذه الـحـقـيـقـة فـي الـذكـر لـئلا يقع النظر خارج نفسه و ابحثوا الحبيب فـ
داخلكم.

الميزات:

كانت له عدة مزايا انكرها فيما يلي:

١ ـ إذا طـعـنـه أحـد من عـامة الناس أو اتهمه فانه لا يسيء القول فيه بـ
يحسن القول فيه و يقبل تلك التهمة التي الصقت به.

٢ ـ إذا طـلـب مـنـه أحـد اي كـتـاب فـانه لا يسترجع منه و هناك كثير مـ
الناس من يأخذ كتباً متداولةً فان ردوه فبِها و إلا يكون اكثر فرحاً و سروراً.

٣ ـ و كان يعامل من يعرف و من لا يعرفه سواءً.

٤ ـ و كان يحسب كل من احبائه أنه أقرب منه بالنسبة إلى الآخرين.

٥ ـ ذات يـوم كـنـت أمـشـى مـعـه إلى السوق و كان اليوم حاراً فطلب منه
مجذوب حذاءه فاعطاه على الفور رغم شدة الحرارة.

٦ ـ و كان جالساً ذات يوم في السوق فسقى الماء عجلاً ظامئاً بيده

٧ ـ و مـرةً جـاءه رجـل مـجـهـول و طـلـب مـنـه جلبابه فنزعه من جسمه
و أعطاه بدون تردد.

٨ ـ سرق رجل حمائل جيدة من بين كتبه فبدأت ابحث عنه متأسفاً فقال لي: لماذا تتأسف انت؟ بل ينبغي أن اتأسف أنا، و مرة نسي ستة كتب له في منزل و كنت معه اقوم بخدماته و فاردت أن أبحث عنها، فقال: لا حاجة إلى ذلك، مضى ما مضى. و كان من شيمته أنه لا يعبر اي شيء اهتماماً مما كان يفرح عند الحصول على شيء و ما كان يحزن عند فقده.

٩ ـ و ينطبقُ على شيخي تمامَ الانطباق كلُّ ما قاله الشيخ جامي في كتابه "يوسف زليخا" في الثناءِ على مُرشده خواجه عبيد الله احرار، و كان الامبراطور شاهجهان يعدُّه في طائفة الزهاد و يُقابله و يُبالغ في حفاوتِه و إكرامِه و لكنّه لا يعير كل ذلك اي اهتمام و كان يُحب الفقراء و المساكين. لا يعرف احد مكانة شيخي، و لا يثنى عليه من حيث كرامته لانه كان يملك طبيعةً حرّةً، و الكرامة عنده شيءٍ تافه لا قيمةَ لها، و هو إمام الصوفية في هذا الزمان، و يعتز التصوف نفسه بوجودِه و تتشرفُ الحقائقُ و المعارف بأوصافِه و محاسِنه و إنّه بلغ في المعرفة مبلغاً لا يعرفه إلا الله، و قرضتُ في شانه قبل سنواتٍ قصيدةً تنطبق معانيها عليه تمامَ الانطباق.

اقوال خواجة خُرد:

١ ـ لما دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الكعبة راى هناك ستين و ثلث مائة صنم و كانت في يده عكازة يدفع بها كل صنم و يقول: جاء الحق و زهق الباطل. و ينبغي للطالب ان يتصور قلبه كعبة حقيقية لأنه قبلة جميع العبادات و قد احاطت به اصنام الهوى لعدد كثير، فللطالب ان يتلو هذه الكلمات القرآنية ملتفتاً إلى قلبه و له ان ينوى اولاً المتابعة و تلاوة القرآن الكريم ثم يقرا ملتفتاً إلى جانب الايسر من قلبه "و زهق الباطل" يتصور

الظهور الحقيقي في قلبه المرة الأول و يتصور الثانية ان غير المقص
الحقيقي يخرج من القلب و يكثر التمرن على ذلك فينجح إن شاء اللّه ف
مرامه. و الهمني الله هذه الطريقة و أخفيتها في قلبي مدة و وفقني الله ا
اكتبها على الأوراق بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٠٥٥ هـ.

٢ - ينبغي أن يعرف أن الشريعة صورة الحقيقة و الحقيقة معناها و
تنفصل الصورة عن الحقيقة و لا على العكس، يستحيل التوصل إلى المعن
بدون واسطة الصورة و الاكتفاء بالصورة و الرغبة عن المعنى المقصود خسار
محضة و في ذلك كفاية.

٣ - إن لمسلوب العقل نوعان أحدهما مجنوب و الآخر مجنون، و يلتح
المجنون بالحيوان فإنه يعرف كل ما يعرفه الحيوان، لا ينبغي أن يذهب إل
المجانين لانهم يعرفون الناس و من الممكن ان يزيحوا القناع عما لا يناسد
كشفها بل ينبغي أن يقصد أصحاب السلوك و الإرشاد و تتكشف لهم الأشياء أيض
و لكنهم لا يبدون كل شيء بل يخفون كل ما يخفيه الله تعالى و لا يظهرون عيود
الناس إلا عندما تمس الحاجة إلى ذلك.

٤ - و كنت اخرج للتنزه صدفة عند "حالات" و كان نداف يجلس في
الطريق و كان الناس يحسنون الظن به و يلقبونه "غوث" و كلما كنت امرّ بزقة
كان يدعو لي.

٥ - و قال إن القرب قسمان: اولهما أن يكون العبد ظاهراً و الحق خفياً كم
جاء في الحديث القدسي: "بي يسمع و بي يبصر و بي ينطق" و يقال له "قرب
النوافل".

و الثاني يكون فيه الحق ظاهراً و العبد خفياً كما جاء في الحديث الشريف "إن اللـه ينطق على لسان عمر" و فيه إشارة إلى هذا النوع من القرب و يقال له "قرب الفرائض".

٦ - و قال إن الناس يقلقون في الأمراض لانهم لا يلتفتون إلى "عالَمِ الاطلاق" و لا ينقطعون كلياً عن العالم الفاني، فلو انقطعوا كلياً عن هذا العالم يتيسر لهم الراحة كل الراحة.

٧ - قال: سألني بعض الأعزاء" هل هناك دلائل و براهين على حدوث العالم في القرآن و السنة؟ فقلت: هناك إشارة إلى ذلك في هذا الحديث: "كان اللّه و لم يكن شيء معه" و في حديث آخر: سأل رجل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم: "اين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟" فقال صلى اللّه عليه و سلم: "كان في غماء .... الخ" و هذا الحديث أيضا يدل على حدوث العالم.

٨ - و قال: إذا ابتلي على العبد بضنك العيش و احتاج إلى شيء ينبغي له الا يقترب من أصحاب الدنيا و يترك الاختلاف إليهم.

٩ - و قال: استغفروا من الذنوب و ازهدوا في الدنيا و لا توكلوا على الأسباب و اقتنعوا بما يصل إليكم من الغيب و انعزلوا متجنبين من الناس و استعينوا بالذكر و استقيموا عليه و انتظروا الحبيب الحقيقي و ارضوا بكل فعله و صفته.

١٠ - قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "يهرم بنُ آدمَ و يشُبُّ منه إثنان الحرصُ على المالِ و الحرصُ على العمر" و يستلزم من هذا الحديث كما هو ظاهر انّه لا يستثنى اولياء الله أيضاً من هذين الوصفين و هذا بعيد و يبدو لي حل هذه المشكلة ان شباب هذين الوصفين يقتضى ان يكونا عندما يكون

الإنسـان شـابـاً فاذا نزعهما احد في شبابه فمن اين يكونُ شبابهما؟ فلا يعمّ هـ القـول سـائـرَ الـنـاس بـل يستثنى منه أولياء الله. و لو قال النبي صلى الله علي وسـلـم: يتولد و يحدث فيه إثنان لورد هذا الإشكال و يفهم منه ان هذين الوصفي يحدثان في الشيخوخة ايضاً سواء حدث في الشباب ام لا.

كراماته و خوارقه:

١ ـ خـرج الـحـافـظ مـهـر علي و كان من اتباع خواجة خُرد لبعض أسفار و بـلـغـه فـي سـنبهل انه يوجد قطاع الطريق في غابة كذا فاهتم الحافظ كثي و امـتـنـع عن المضي في سفره فلما جن عليه الليل راى خواجة خرد في المنا و هـو يـقـول: اذهـب حـيـث تقصد بدون مخافة و يقابلك في موضع الخطر رج يـحـمـل سهماً و قوساً قاصداً إليك من جانب اليسار و يخرجك من المأزق سالم فوقع كما راى في منامه و وصل الحافظ إلى ما كان يقصد إليه بامن و سلامة.

٢ ـ يـقول الشيخ تاج الدين: كنت عند خواجة خُرد إذ وصلت إليه رسالة م قـبـل ولد صالح من دهلي و كان مكتوباً فيها انه إذا قبل ما في الرسالة فإنّه ير الـتتلمذ عليه لتعلم اللغة العربية، فكتب خواجة على حاشيتها: اصبر إلى نص شـهـر رمـضـان الـمبارك و يكون بعده ما يكون. و كان ذلك في أوائل شهر رمضا الـمـبـارك، فـكـتـب ذلك الولد إليه لماذا اشترط منتصف شهر رمضان؟ فردَ علي هـكـذا مـر بـخلدى و توفي هذا الولد في آخر الأمر في ١٤ رمضان المبارك سنـ ١٠٧٣ للهجرة.

٣ ـ قـال خـواجـة سـلام اللّه ابن خواجة خرد: مرضت مرضا شديداً عند ذهـبـت مـع أبـي إلـى لاهـور للمرة الثانية و ظهرت عليّ علائم الموت فقلق أخ خـواجـة كـلـمة الله او حكمة اللّه لما راى ذلك و كنت في تلك الحال إذ دخل عل أبي و قرا شيئاً و هو واقف عندي فما لبث ان قمت جالساً و انتشلت من مرضى.

٤ ـ يقول الشيخ السيد غلام محمد الأمروهي الذي هو من تلامذة خواجة خُرد و مريديه المختصين انه اعتل أخي الصغير السيد وصال محمد و لم تنفعه مداواة الأطباء البارعين من دهلي و اعتبروا هذا المرض مرضاً نهائياً و لما يئسنا من حياته إذ زارنا يوماً خواجة خُرد و عاد المريض و وصفت له جميع احوال المريض متضرعاً إليه و فكر خواجة ملياً ثم قال اسقوه ماءً ساخناً يفيق، ففعلنا و بدأ المرض يخف حتى بريء تماما في اليوم الثالث.

٥ ـ يحكى السيد كمال السنبهلي قصة نفسه: اعتللت مرة في زاوية خواجة و كان يعودني خواجة أربع أو خمس مرات كل يوم و كنت اقوم كل ما عادني و ذات ليلة اشتد المرض و بدأت أهذي فلما صحت قلت في نفسي سوف اقول له: أطال اللّه بقاءك يا سيدي إن الموضع الذي اخترت لقبرك اسمح لي ان ادفن في جانب يسارك إذا مِتّ، فلما اصبحت دخل عليّ خواجة و ألقى عليه نظرة خاصة قضت على المرض تماماً و عدت صحيحاً. و كتب السيد كمال في موضع آخر إن هذه الأشياء الّتي كتبت في ترجمة خواجة خُرد رأيت منها البعض و سمعت البعض الآخر و منها ما وصل إليّ من الآخرين و منها ما اقتبس من بعض مؤلفات الخواجة و لذلك هي قليلة و لو كتبت سائر الأخبار بإجمال و اختصار ليطول الكتاب و يضخم، و ارجو من الله عزّ و جلّ ان اسجل هذه الروايات في كتابٍ مستقلٍ.

زيارة خواجة خُرد إلى سنبهل:

يقول السيد كمال: لم احضر في خدمة الشيخ سنة ١٠٧٣ هـ بسبب عذر قوي و لذلك اتى نفسه إلى سنبهل في ١١ ربيع الآخر و اولاني شفقته و اقام عندي شهراً و يوماً ثم غادر إلى دهلي و صحبته إلى حسن بُور و لما فارقته اضطررت

إلى البكاء و اجهش صوتي بالبكاء و ما كنت استطيع التحدث ثم انكشف بعد ذلك انه كان آخر لقائي معه.

مرضـــه و وفاتـــه:

اصيـب الـشيخ سنة ١٠٧٤هـ بأمراض مختلفة و لكن اشتغل بافادة الاتباع دائـمـاً رغـم ذلـك و كـان يقول أثناء هذه الايام: سافارق هذه الدار قريباً، و الناس يـقلقون لقوله فيسليهم و يقول لهم: اقول لكم لتصبروا و تبتغوا مرضات الله و لا تـكـونـوا مـضـطـربين. و ذات ليلة طلب ابناءه و كان خواجة غلام بهاء الدين ابن خواجة خُرد قريباً منه فتسارع إلى الحضور، فقال له أن يقدم امامه ثم قال: إني اعـطـيـتك كل ما بلغني من خواجة باقي باللّه و الشيخ احمد السرهندي و الشيخ حُسام الـدين و الـشـيـخ الـهـداد. فـقـال الابن" فداء لك، ماذا تريد؟ فقال: تقبله. فأجاب لقد تقبلت ما قلت.

ذكـر كـاتب السطور (السيّد كمال) ايضاً عند ذلك و قال: إني أرضى به و لم يـصـدر مـنـه شيء إلـى الآن يـبـعـث إلى عدم الرضاء ثم قال: يرجع السيّد كمال السنبهلي إلى دهلي بعد وفاتي.

و يـقـول الـسيد كمال: رايت الشيخ في المنام عندما كنت في سنبهل ثلاث لـيـال مـتـتـالـيـة و هـو يقول: إطمئن لخذاً بيدي و اكلفك خدمة، و علمني اشياء ضرورية للطريقة الصوفية في المنام، و كان يقول في حياته ايضاً: عندما أفارق هـذه الـدنـيا فـانـت تقوم بأعمال كذا و كذا. و كنت اقول له: اتمنى أن اموت بين يديك و ادفن قريباً من تلك الأرض التي اخترتها لنفسك.

و لـم يـخـرج خـواجـة خُرد من بيته يومين او ثلاثة ايام في أيامه الأخيرة و كـان يـوصـى أهـل بـيته و كانت تجرى على لسانه الكلمات الماثورة مثل آمنت

بالله و لا إله إلا الله و أسماء الله تبارك و تعالى. و قال في اليوم الآخر لاهل بيته: اطبخوا طعاماً وافراً ثم وزعوه بين الفقراء و المساكين، و لما فعلوا ذلك قال لا إله إلا اللّه ثلاث مرات و ألقى الخرقة على راسه و امر باغلاق الباب و ظن الناس انه يستريح، فلما راؤه بعد وقت كان قد توفي رحمه الله رحمة واسعة. و دفن قريباً من قبر خواجة باقي باللّه بالجانب الغربي. و كان تاريخ وفاته ٢٥ جمادى الاولى ١٠٧٤ هـ يوم الأربعاء و كان عمره يومئذ ثلاث و ستون سنة و عشرة شهور و تسعة عشر يوما. و لما بلغ هذا النبأ الفاجع إلى سنبهل غُشي علي و انا لا ادري شيئا و القصّة طويلة. رأى ابني عبد الوالي في المنام الليلة الاولى ان الشيخ واقف في تلك الحديقة التي مكث فيها شهراً و يوماً لابساً ملابس فاخرة في صورة خواجة نقشبند ثم رأى فجاءة انه تحول إلى صورة خواجة باقي باللّه ثم ظهر في صورته الأصلية و أوصاني وصايا و معارف عديدة.

و لما ذهبت (السيّد كمال) بعد وفاته إلى دهلي لزيارة قبره و جلست عند قبره شعرت بشيءٍ عجيب و وجدت نفسي فانياً مطلقاً و كنت أحدق في وجه شيخي بفرحٍ و سرورٍ بالغ، ثم جئت إلى سنبهل ثم رايت شيخي في المنام في ليالي عديدة فعاملني مثلما كان يعاملني في حياته و يطول ذكر قصّة الرؤيا.

الهوامش:

i ـ و هو مصطلح خاص للطريقة النقشبندية إذ يربي المرشد طالبيه بلقاء توجهاته السرية.

ii ـ هو من العلماء البارزين له تفسير القرآن الكريم باسم "تفسير مظهري" في مجلدات كبار، كان خليفة الميرزا مظهر جان جان النقشبندي المجددي (استشهد عاشر

محرم ١١٩٥ للهجرة في دلهي) و كان قد خلفه الشيخ عبد اللّه المعروف بـ غلام علي الدهلوي النقشبندي (توفي ١٢٤٠ للهجرة) الذي هو مرشد المولانا خالد الكردي.

iii ـ "در المعارف" من كلمات الشيخ غلام علي الدهلوي ألفه الشيخ رؤف أحمد رافت المجددي ص ٢٠١.

iv ـ ذكر الخواجة باقي باللّه ص ١٠٦

v ـ لا يوجد هذا الكتاب القيم الآن

المالاحظات:

١ ـ "خُرد" بضم الخاء و سكون الراء كلمة فارسية معناه: الصغير.

٢ ـ "كلان" أيضاً كلمة فارسية معناه: الاكبر.

٣ ـ اسم الكتاب المنظوم لخواجة باقي باللّه.

٤ ـ محمد هاشم الكشمي: "زبدة المقامات" ص ٣



الجوانب الدينية و الاجتماعية
للعلاقات الهندية العربية

بقلم: أ. د. شيث محمد اسماعيل الاعظمي تعريب: د. فرحانه صديقي

وصف رسولنا محمد صلى اللّه عليه وسلم الهند بانها أرض لعبير الجنة، و الحقيقة أن هذه البلاد كانت معروفة لدى العرب و المصريين حتى في العصور البدائية للتاريخ و يرجع تاريخ علاقاتها مع غرب آسيا إلى حوالي القرن التاسع قبل الميلاد(١). و قد ذكر المؤرخون أن الملك سليمان عليه السلام كان قد حصل على الذهب و الفضة و العاج و القرود و الطاووس من هذه البقعة من الارض (٢). و كان الكتاب الاغريق و الرومان على معرفة عن جغرافيا الهند و ذكروا عن الصادرات و الواردات الهندية، كما يوجد في كتاباتهم ذكر حارة للتجار الهنود كانت في الاسكندرية في بداية القرن الثالث (٣).

و قد مضت قرون عدة على بداية الاختلاط بين الهنود و العرب و ينعكس ذلك في دخول كلمات هندية إلى اللغة العربية إما بصفة مباشرة أو غير مباشرة، و منها كلمة "الهند" التي اختارها العرب لتسمية بناتهم بـ "هند أو "هنده" و إن دل هذا على شيء فانما يدل على رحابة صدورهم تجاه الهند و كل ما له علاقة بالهند. كما كانوا يسمون السيوف الهندية بالهندوانى او السيف المهند، و حظيت الاقواس و الرماح الهندية أيضا بقبول واسع لدى العرب ليس فقط لاستعمالها في ساحة القتال و إنما لاستخدامها المنزلي أيضا، و قد دخلت أسماء هندية

لـعـدة اشـيـاء و مواد إلى اللغة العربية و ورد نكر البعض منها في القرآن الكريم ايضا مثل الكافور و الزنجبيل (اصلها زنجابيرا) و المسك و ما إلى نلك.

بالاضـافـة إلـى الـقـرآن الكريم نلاحظ نكر هذه الكلمات في شعر ما قبل الإسلام ايضا و منها على سبيل المثال لا الحصر القرنفل (اصلها الكلمة الهندية كـرن بـهـول) و الـفـلـفـل (اصلها الهندي بيبل) و المسك (اصلها موسكا) و القرطق (اصـلـهـا كـرتـه و هـو نـوع من الـقـمـيص الهندي) و بابوس (اصلها بابو معناها الـطـفـل) و غـنـاء (اصلها جانا) و سراج (اصلها شراغ) و ضياء (اصلها ديا) و رشا (اصـلـهـا رسـى مـعناها الحبل) و دلو (اصلها دول) و ساج (اصلها ساجوان) شجر كان خشبه يستعمل في صنع الأبواب و السرائر لبيوت النبلاء و كان سرير مصنوع مـنـه فـي الـحـجـرة الصغيرة للرسول صلى اللّه عليه و سلم و التي كانت ابوابها ايضا مصنوعة من نفس الخشب.

و سـمـى الـعرب الخشب المعطر "شندن" "بالصندل" و "دهوب" "بالعود" و "تـارى" (نـبـيـذ الـتـمـر) بالدارى، و كانت هذه الأشياء تدخر في اربعة موانيء، كـانـت بـمـثـابـة مـسـتـودعـات لـلبضائع الهندية و هي جرة و ابله و سيهار و دبا و الاخيرة تعرف الآن بدبي (٤).

كـانـت الاقمشة الهندية و الملاءات السندية و خاصة الفوطة مقبولة جدا لدى العرب ـ و قالت عائشة رضى الله عنها إن الرسول صلى الله عليه و سلم كان يسـتـخـدم الاقـمـشـة الهندية المصنوعة في السند (٥) و تنطق الكلمة الهندية "جـات" من قـبل العرب كـ "زوط" و هي سلالة هندية الأصل تسكن في المناطق الساحلية منذ قديم الزمن و معها عناصر اخرى تسمى "تكاكيرا" (اصلها الهندي تاكور) و بياسره و مانييل و اسوار (واحدها سوار معناها راكب).

كانت جالية الجات أو الزط ابرز العناصر الهندية التي استقرت في بلاد العرب و حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم ايضا كان يعرف بتواجدهم هناك، و مرة اتاه وفد من نجران في السنة العاشرة من الهجرة فسال من هم هؤلاء الرجال؟ إنهم يشبهون الهنود. و قام الزط بدور مهم في أوائل التاريخ الاسلامي خلال عهد الخليفة الرابع علي رضى الله عنه.

كان الماد من أتباع البوذا و كانوا من سكان المنطقة الممتدة من السند إلى غجرات فاختاروا السكن على السواحل الجنوبية و الشرقية لبلاد العرب حتى قبل ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم. و مجموعة أخرى من أهل السند كانت تسكن في اليمن (٦) و شمال شرق الجزيرة العربية و أبله في العراق (٧) و اليمامة (٨) و نجران (٩) و مكة المكرمة و المدينة المنورة. و وفقا لإحدى البيانات فان عائشة رضى الله عنها استشارت ذات مرة طبيبا من "الزط" (١٠). و كما ذكرنا فيما سبق فان الهنود الذين استوطنوا أرض العرب قاموا بدور حيوي في التاريخ السياسي للعصور الأولى للإسلام و اصبح نفوذهم ملموسا للغاية في اواخر العصر العباسي في منتصف القرن الثامن مما جاء كبداية تاريخ طويل للعلاقات الثقافية العميقة دام سبعة قرون ذهبية لم تكن الاتصالات خلالها من طرف واحد بل كانت متبادلة و احاطت بالمظاهر الكافة للمعرفة الإنسانية لذلك العصر. و جاء فتح السند و البنجاب من قبل المسلمين لكى يزيد من نفوذ العرب في الهند حيث جعل المنطقتين مركزين للثقافة العربية.

كان الوضع في المنطقة الجنوبية للهند مختلفا عنه في السند و البنجاب و الملتان حيث وصل المسلمون هناك تجارا و بحارا و استقروا في كوكن (ولاية مهاراشترا) و مالابار (ولاية كيرالا) و المدن الساحلية لولايات آندهرا براديش و مدراس و ميسور و غجرات و كاتياوار. و هم نالوا كل مساعدة من الحكام

المحليين تصحبها الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية تحت حماية الحكام و الملوك و يمكن الحصول على معلومات تفصيلية عن ذلك في بيانات الكتاب و السياح العرب لذلك القرن.

و هذا العصر هو الذي قام فيه المؤرخون و الجغرافيون و الرحالة المسلمون بتحويل الهند إلى البؤرة الرئيسية للتاريخ و نشروا العلوم و الحكمة و المعرفة الهندية في سائر انحاء العالم حيث أخذوها من الهند و نقلوها إلى غيرهم بأمانة و إخلاص.

يعتبر العصر العباسي عصرا ذهبيا فيما يتعلق بنشر و ترويج العلوم الطبيعية الهندية فتم نقلها إلى اللغة العربية تحت رعاية الخليفة هارون الرشيد و المامون و البراهكة الذين كانوا ينتمون أصلا إلى بلخ. و قد علمنا بوصول بعض العلماء (بندت) الهنود من السند إلى بلاط الخليفة العباسي المنصور فرحب بهم الأخير ترحيبا حارا و هم الذين جاءوا بذلك الرسائل الخاصة بالرياضيات و علم الفلك التي تمت ترجمتها إلى اللغة العربية. و الكتاب الهندي حول علم الفلك "سوريا سدهانت" سمى لدى العرب "سند هند" و عرفوه عام ٧٧١م و ترجمه إلى العربية الفارازى بأمر من الخليفة المنصور (٧٥ ـ ١٧٧٣م). و من المؤلفات السنسكرتية المعروفة لدى العرب في ذلك العصر "آريابهاتا" لصاحبه آريه بهت (ولد في ٤٧٦م) سمى بالعربية "ارجبهاد" و الاركند (خندا خاديكا) و الفه براهما جبتا (ولد في ٥٩٨م) الذي ازدهر في أجين (١١) و هذه الكتب الخاصة بعلم الفلك شجعت كثيرا من علماء هذا الفن مثل الفارازى و الخوارزمي و بفضلها نالت مصطلحات سنسكرتية عديدة طريقها إلى اللغة العربية.

قام الفارازي بترجمة كتب حول الرياضيات و استعار العرب نظرية الصفر و النظام العددي الهندي من السنسكرتية.

كان النظام الطبي الهندي اى الآيورفيدا معروفا لدى العرب و قد علمنا أن الطبيب الهندي منكا كان قد دعى من قبل هارون الرشيد لعلاجه فعين طبيبا رسميا في المستشفى و قام بترجمة سبعة كتب إلى العربية.

كما كان أطباء هنود آخرون و هم كانكا و سانجهال و تشاناكيا (شنق) و جودهار (يشودهرا) معروفين خلال هذا العصر. و تمت ترجمة كتاب خاص حول الأمراض النسوية إلى اللغة العربية مع الكتب الهندية الاخرى التي كانت تتناول موضوعات الحيات و السموم و علاج الحبالى و ما إليها (١٢).

هذا و لم تكن العلاقات الاجتماعية و الثقافية منحصرة في الطبقة الحاكمة أو المثقفة و إنما نال النفوذ الهندي طريقه إلى جماهير المجتمع، و لذا نلاحظ ان التجار و العبيد من اصحاب الحرف و العمال و البنائين و المطربين و الرقاصين اندمجوا تماما في المجتمع العربي. و نعرف العديد من الاعضاء البارزين للمجتمع الاسلامي الذين كانو ابناء امهات ذوات الأصول الهندية مثل محمد بن حنفيه بن علي بن طالب صهر الرسول و الامام ابي حنيفه مؤسس إحدى المذاهب الفقهيه الاسلامية. و في أواخر العصر العباسي ازدادت نسبة الزواج مع النساء الهنديات الاصل و احتل كثير من ابنائهن مناصب ادارية ممتازة و من بينهم ابو حارث هندي الذي عين امين الخزانة لدى الخليفة المهدي (١٣) و إن زوجة هذا الخليفة "سكر السندية" انجبت إبنه اسحاق (١٤). و ظلت مهنة الصيرفة بيد الصيارفة السندهيين و كان الدجاج السندهي يعتبر طبقا شهيا لدى العراقيين و ربما تستعمل كلمة الدجاج للحبارى. طائر معروف لصحراء السند.

و ذات مرة ارسل فيل هندي إلى بغداد للخليفة العباسي المامون (١٥) و كان العرب معجبين بشدة بالطيور الهندية و منها الطاؤوس و إن شاعرا للعصر العباسي و هو محمد بن بشار همداني شبه غناء الطيور الهندية بغناء الفتيات الهنديات.

و زار شاعر هندي بلاط يحي بن خالد البرمكي وزير مامون الرشيد و انشد قصيدة في مدحه تعنى إحدى أبياتها "انه كلما نتحدث عن اسخياء العالم فلابد ان ننكر اسمك أيضاً (١٦).

و قد احتفظ تاريخ الأدب العربي بقائمة طويلة لأسماء الباحثين و علماء اللغة و الخطباء و الشعراء و رواة الأحاديث النبوية الشريفة و النحويين من ذوي الاصول الهندية و تتضمن هذه القائمة اسماء عدد من النساء ايضا، و معظم هؤلاء الناس كانوا يحملون لقب "السندي" و أبرزهم الخطيب المعروف ابراهيم بن السندي و من بينهم رواة الأحاديث النبوية و يبلغ عددهم مائة شخص و يبدو من اسماءهم انهم اعتنقوا الدين الجديد.

و كان ابو العطاء السندي و ابراهيم السندي و ابو النصر السندي من اهم الشعراء العباسيين لذلك العصر.

أما السيدات الهندية الأصل للعصر العباسي فمنهن خمار السندية البغدادية التي كانت تبيع الخمر في بغداد (١٧) و الطبلة الهندوية البغدادية و شاهدة الطحانة (صاحبة مطحنة).

ينعكس التأثير الهندي في الاعمال الادبية لكثير من المثقفين العرب. اما فيما يتعلق بالادب فيمكن القول إن فقه اللغة العربية قد تاثر كثيرا بنظيره الهندي، و هذا ما اعترف به الجاحظ في كتابه المعروف "البيان و التبيين".

تحظى الهند بشهرة واسعة منذ قديم الزمن في فن تلخيص العلوم شعرا و اقتدى العرب الهنود في هذا الفن فقاموا بتلخيص كثير من الكتب حول النحو و علم الفلك شعرا و اعين بأن حفظ الشعر اسهل من حفظ النثر. و خير مثال لمثل هذه الروائع الادبية هو كتاب النحو المعروف الفية ابن مالك.

و قد ذكر في التاريخ ان اللغوي الشهير خليل بن احمد كان قد نصح تلميذه زيد بن سيار بأن ينظم الحروف العربية على نمط السنسكريتية. و إن "كليلة و دمنة" الترجمة العربية لكتاب اللغة السنسكريتية "بنج تانترا" معروفة باصلها الهندي. و هناك عدد لا بأس به من المثقفين و الشعراء الذين تاثروا بالفلسفة الهندية تاثيرا عميقا و منهم ابو العلاء المعرى و ابو العتاهية.

خلال القرن التاسع عشر اصبحت الهند مرة أخرى مركزا للعناية و الاهتمام لدى العرب عندما ظهرت حركة الترجمة في العالم العربي فقاموا بترجمة روائع أدبية كثيرة و منها كتابات غاندي و بريم تشاند و اقبال و طاغور وغيرهم. و بالاضافة إلى التراجم قرض الشعراء العرب البارزون للعصر الحديث امثال احمد شوقي و خليل مطران و الزهاوى و معروف الرصافى و مهدى الجواهري و عباس محمود العقاد و عمر ابو ريشه سفير سوريا لدى الهند قصائد جميلة عن الشخصيات الهندية البارزة مثل غاندي و جواهر لال نهرو و راجندرا براساد و مولانا محمد علي جوهر و مولانا آزاد و الدكتور ذاكر حسين.

و في الوقت ذاته تناول الشعراء العرب مواضيع هامة عن الهند مثل الكفاح لاستقلال الهند، كما ان الاماكن السياحية مثل كاشمير و خاجوراهو و التاج محل و سد بهاكرا أوحت الشعراء العرب فتغنوا في قصائدهم بجمالها و روعتها.

كما نال كثير من الأعمال الدينية الممتازة إعجابا كبيرا لدى العرب و منها "فتاوى عالمكيري" المعروفة بالفتاوى الهندية و "حجة اللّه البالغة" للشاه ولي اللّه الدهلوي و "سبحة المرجان في مدح هندوستان" لصاحبه غلام علي آزاد البلكرامي و هناك كثير من العلماء الهنود الذين يعرفون بمساهمتهم القيمة في ادب الحديث النبوي و منهم مولانا عبد الرحمان المباركبوري صاحب "تحفة الأحوذي" و العلامة عبد الحي الحسني صاحب "نزهة الخواطر" و إبنه العظيم الشيخ ابو الحسن علي الحسني الندوي، و قد اعترف العرب بهذه الأعمال الهندية باعماق قلوبهم.

و في الوقت الحاضر تصدر مجلات عربية عديدة في الهند و أشهرها ثقافة الهند التي يصدرها المجلس الهندي للعلاقات الثقافية في دلهي و البعث الاسلامي و الرائد و تصدر كلتاهما في لكهنؤ و غيرها من المجلات و الصحف التي تدرس في ديوبند و فاراناسى.

و يجب الا ننسى ان الأفلام الهندية تمثل دورا حيويا في عرض و إبراز الثقافة الهندية باحتوائها على القيم الانسانية الخالدة و نخص بالذكر من تلك الأفلام "مدر إنديا" و هو معروف لدى العرب بإسم "الأم" و سوف تبقى ذكريات هذه الأفلام في قلوبهم ناهيك عن نجوم و نجمات السنيما الهندي او المطربة الشهيرة لتا منغيشكر التي انتصرت بصوتها العذب كالعسل على قلوب الملايين من الناس.

الجوانب الدينية:

تعتمد معلوماتنا عن هند القرون الوسطى بالدرجة الرئيسية على كتابات المثقفين و المؤرخين العرب أمثال:

١ ـ الـجاحظ (ت ٦٨٤م) هو اقدم من كتبوا عن الهند. ففي كتابه "الرسائل" خـصـص بـابـا لـتـفـوق الـمـلـونين على البيض و قدم معلومات هامة عن الهند و الهنود.

٢ ـ سـلـيـمـان التاجر: إنه سافر بين الهند و الصين و العراق كتاجر و خلال رحـلاته قام بزيارة القرى الساحلية الهندية و كتابه يحتوى على معلومات ثقافية و ادارية و جغرافية عن الهند و قام بتدوين تلك المعلومات في حوالي ٨٥١م.

٣ ـ أبـو زيـد الـصـيـرفـي: كـتـب ابـو زيـد عن العادات و المعابد و الاعراف و الـمـعـتـقـدات و الـبـيـانـات الجغرافية الخاصة بالهند و تعتبر كتابات سليمان التاجر و أبي زيد الصيرفي بمجملها ذخيرة كبيرة للمعلومات عن الهند.

٤ ـ ابن خرزويه: رغم أنه لم يزر الهند قط و لكنه جمع معلومات كثيرة عن الـهـنـد من الأشـخـاص الـقـادمـين مـنـها، كان يشغل منصبا مهما لدى الـخلفاء الـعـبـاسيين و كان مسئولا عن قسم البريد و ادارة الامن و كانت له وثيق صلة مع الديوان الملكى و إن كتابه المعروف "المسالك و الممالك" يحتوي على معلومات عن الطرق التجارية البرية و البحرية و العادات و الاعراف الشائعة في الهند. ولد عام ٨٥٠م و توفى عام ٩١٢م.

٥ ـ الـبـلاذري: يـقـدم كتابه "فتوح البلدان" بيانا تفصيليا عن فتوح السند، كان جغرافيا و مؤرخا معروفا توفى عام ٨٩٢م.

٦ ـ الـيـعقوبي: نال كتابه في التاريخ شهرة واسعة، قام بأسفار كثيرة و زار العالم الاسلامي في ذلك الوقت بما فيها الهند. توفى عام ٩٠٠م.

٧ ـ ابن الفقيه: له كتاب معروف "كتاب البلدان" ألفه بعد عام ٩٠٢م.

٨ ـ ابن رستـه: صاحب كـتـاب مـعـروف "الاعـلاق الـنـفيسة" يقدم بيانا تفصيليا عن ثقافة الهند و انماط العبادة و الاضاحي و قوانين العقوبات السائدة في الهند، و ألفه عام ٩٠٣ ـ ٩٠٢م.

٩ ـ الـمـسعودي: كان سياحا و جغرافيا و مؤرخا ينتمي إلى بغداد و يحتوى كتابه "مروج الذهب" على معلومات عن المدن و الأنهار الهندية.

١٠ ـ ابن الـنـديـم: يـعـد كـتـابـه "الـفـهـرسـت" من الـمـصـادر الموثوق بها للمعلومات عن الديانات و الطبقات الدينية الهندية.

بـالإضـافـة إلى الكتاب المذكور اسماؤهم أعلاه هناك كثيرون آخرون كتبوا حول الهند و منهم مطهر بن جرير الذي يعرف بكتابه "كتاب البدء و التاريخ" حول الـديـانـات الـهـندية و جغرافيا الهند، و الاصطخرى الذي جاء إلى الهند عام ٩٥١م و كـتـب عن الـهـنـد و الـسـنـد، و المقدسي و كتابه "احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم" يحتوى على وصف السند، و قاهر البغدادى الذي توفى عام ١٠٣٧م و كتب عن الـديـانـة الـبـونيـة و الـبـونيين و سعيد الاندلسي الذي يعرف بكتابه "طبقات الامـم" و فـيـه بـاب حـول تـخـصص الهنـــدوس في الفلكيات. و يقـــدم كتاب "الملل و النحل" للشهرستاني بيانات تفصيلية عن التاريخ و الفلسفة و الطبقات الـدينية للهندوس. توفى الشهرستاني عام ١١٥٣م. و من بينهم ابن حوقل الذي كان اول عالم للجغرافيا حاول تقديم معلومات تفصيلية عن طول الهند و عرضها إلى جانب البلدان المتاخمة و توفى عام ٩٧٩م. اما الادريسي و البيروني و ابن بطوطة فجميعهم في غنى عن التعريف.

و سـبـق أن نـكـرنـا أن مـعـرفتنا عن الهند تعتمد على بيانات هؤلاء الكتاب و السياح و لكننا نحتاج إلى دراسة التراث التاريخي و الادبي للقرون الوسطى من اجل الاطلاع على التاثير الديني الهندي لدى العرب.

من المعروف أنه كانت هناك علاقة قوية بين عباد الاوثان من الهند و جنوب شبه الجزيرة العربية مما ادى إلى انبماج سريع بينهم. و قد نكر الشهرستاني شواهد على نلك (١٨) فكتب أن الدين الذي يمارسه الهنود و العرب هو نفس الدين تقريباً (١٩) و عد كل من المسعودى و الشهرستاني معبد "سومنات" من الأماكن المقدسة لدى الهندوس و العرب (مروج الذهب ج١١ ص ٢٤٨ - ٢٤١) و إن الكعبة لابد ان كانت مقدسة لدى الهندوس ايضا قبل الإسلام، و جاء في رواية ان عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم عثر على سيوف هندية في بئر زمزم، فاستخدمت في باب الكعبة و بقى هذا الباب في حالة جيدة حتى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

و يضرب المثل بحماس الامبراطور اشوك تجاه الديانة البونية فقد ارسل بعثات تبشيرية إلى خمسة حكام اغريق من بينهم Antioch في سوريا و انتيغونس جوناتا في مقدونيا و الاسكندر في ابيرس. و يقال إنه بفضل النشاطات التي قامت بها البعثات التبشيرية اصبح قانون التقوى لهذا الامبراطور مقبولا و معمولا به في امبراطوريته (٢٠). و جاءت فتوحات الاسكندر لكى تفسح المجال امام المعلمين الدينيين للرحلات و لذا نجد في الفترة من القرن الثاني ق م إلى القرن الثاني الميلادي حارة خاصة للهنود في الاسكندرية (٢١). و هكذا ازدهرت الفلسفة الهندية في هذه البلدان و انتشرت الافكار الهندية في الدول المجاورة لحد أن جاحظ استعمل كلمة "سادهو" (القديس) للنساك الذين كانوا يتجولون، في بغداد.

و فور وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم دخل الدين الإسلامي مرحلة ارتباك منطقي و بدأ يتفرع إلى مذاهب و نظم عدة بفعل ضغوط الحياة و المنطق، فكانت طبقات الخوارج و الشيعة و المرجئة و القادرية اول ما ظهر

إلى حيز الوجود. و إن طبقة الشيعة التي ازدهرت في فارس قامت بتطوير نظم مثيرة للعناية، و تبنت مجموعة متطرفة منها مبادىء توجد لها مثيل في الهندوسية. على سبيل المثال كانت هذه المجموعة تؤمن بالغلو و التقصير و بينما يعنى الأول أن الانسان يمكن أن يرفع إلى منزلة الاله فان الثاني يعنى بأن الاله يمكن أن ينزل إلى درجة الانسان. و بالتالي فإنهم رفعوا زعيمهم إلى مكانة الالوهية و بالتالي اعتقدوا أنه يمكن حلول الله في نفس البشر و امنوا كذلك بنظرية تناسخ الأرواح.

نجد هذا التاثير في الشعر العربي أيضا (اثناء القرنين الثاني و الثالث من الهجرة) عندما أعرب كثير من المسلمين عن شكوكهم في عقيدة الحياة بعد الموت و النبوة متاثرين في ذلك بالافكار الهندية (٢٢). و جاء في الأغاني أن الشاعر الأموي المعروف كثير عزه كان يؤمن بتناسخ الأرواح.

بالإضافة إلى الفلسفة الهندية بدات الأفكار الدينية الهندية الأخرى و قصص الزعماء الروحيين الهنود تنال طريقها إلى المجتمع العربي لذلك القرن. فدخلت أسطورة البوذا إلى الأدب الإسلامي بصفته قديسا و إن الكتاب المسلمين عن حياة البوذا خلطوا بين قصته و قصص ابراهيم بن ادهم. و الزهاد الهنود الذين كانوا يسافرون في جماعة اثنين و لا يقيمون في مكان أكثر من ليلتين كانوا معروفين لدى المسلمين، فأخذوا منهم العهود الأربعة و هي الطهارة و الصدق و الفقر و استخدام السبحة (٢٣). و كان الجاحظ على معرفة جيدة عن هؤلاء القديسين فذكرهم باسم "سادهو" في كتاب الحيوان.

و بعد تأثرهم بروحانية الشرق بدأ المتصوفون المسلمون للقرون الاسلامية الأولى مثل حسن البصري و مالك بن دينار و بايزيد البسطامي يمارسونها

و ينشرونها، و لهذا السبب نجد ان فكرة "نرفانا" (الخلاص) و ممارسة اليوجا و امتلاك القدرة لاحداث خوارق العادة تسربت إلى الاسلام تحت مصطلحات الفناء و الطريقة و السلوك و المراقبة و الكرامة و المعجزة. و هذه الفترة الاولى للتصوف استمرت حتى بداية القرن التاسع الميلادي. و خلال هذه الفترة كان زعماء التصوف يعيشون عيش الزهد و التقوى و كانت البصرة و الكوفة مركزين هامين للتصوف في نلك العصر.

ينكر عزيز أحمد في كتابه "التصوف الإسلامي و التصوف الهندوسي" ان التصوف الإسلامي يبدو كأنه اتصل بالأفكار الصوفية للبونية و الهندوسية في مرحلة متأخرة و بعد أن تطور معظم ميزاته الرئيسية اما في اطار التقاليد الإسلامية الأصل أو في اطار العناصر الافلاطونية المحدثة او المسيحية. و من بين الميزات الرئيسية المماثلة للتصوف الإسلامي و البونية كما نكرها عزيز احمد نقلا عن كتاب بارزين مثل جولد زيهر و نيكلسون و زهينر و غيرهم هي: الطريقة و المراقبة و التفسير الصوفي للتوحيد، و يعتقد جولد زيهر ان هذه الأفكار مستعارة من الفلسفة الهندية و يرى ان تصور بايزيد عن الانهار و البحار يرجع إلى المصدر البوذى "أودنا فارجا". و يبدو أن الممارسة الصوفية "حبس الدم" قد تم استخراجها من ممارسة اليوجا البونية "برانايما" و المبدأ الصوفى للصلح مع الجميع يبدو مستعارا من البونية (مهايانا) بدلا من الهندوسية (٢٤).

و يمكن أن نلاحظ لمحات عن الأفكار الهندية الأخرى لدى الشعراء مثل المعرى الذي كان سوريا لا ياكل اللحوم و كان متاثرا بشدة بافكار هندية مثل نظرية "اهنسا" (اللاعنف). و يظهر التاثير الهندي بشكل اكثر وضوحا لدى منصور الحلاج الذي سافر إلى السند و كشمير و من المعروف انه اعدم بسبب ادعائه او اعتقاده بحلول ذات اللّه في روحه (٢٥).

و تجلت افكاره بوضوح فيما بعد لدى ابن العربي و الجيلى و تغنى بها الفريد و أبو سعيد بن ابي الخير.

و في الجانب الآخر بدأ عديد من العلماء المسلمين يتوافدون إلى الهند و ابرزهم على بن عثمان الهجويرى المعروف بداتا بخش اللاهورى الذي توفى في لاهور عام ٤٦٩ هـ و فريد الدين عطار و خواجه معين الدين الجشتي الذي جاء إلى اجمير عام ١١٩٧م و الجيلى الذي جاء إلى الهند عام ١٣٨٨م. كما استوطن الهند سيد شاه مير بن عبد القادر جيلاني و قطب الدين بختيار كاكى و شاه غوث شتاري (ت ١٥٦٢م) و شاه مدار (القرن الحادي عشر) و شاه سرور، و جميعهم عاشوا في الهند و قامو بنشر الأفكار الإسلامية و مبادىء التصوف الإسلامي في طول البلاد و عرضها. يذكر بارث في كتابه "الديانات الهندية" أن العرب وصلوا إلى سواحل جنوب الهند و أقاموا اتصالات تجارية و اجتماعية مع سكانها قبل وقت طويل من قدوم الافغان و الاتراك و المغول إلى هذه المناطق. و في الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر شهدت هذه المناطق ظهور حركات دينية تنسب إلى سانكارا و رامانوجا و آننداجا تيرتا و باسافا(٢٦). و كان نفوذ الإسلام في المرحلة الأولى مباشرا و محدودا و لم يكن ذلك نتيجة دراسة الأدب الإسلامي بقدر ما كان نتيجة لتعاليم علماء الدين أو ممارسة اعراف المسلمين و عاداتهم. و استقر المسلمون بعدد كبير في هذه السواحل التي انجبت عدة علماء كبار للهندوس.

ولد سانكارا في الفترة التي كانت الهندوسية فيها تنتصر على منافسيها ـ البونية و الجينية ـ و كان بشيرا لعهد جديد حيث عمل على وضع فكرة التوحيد على أساس فلسفى متين لكى يقتنع بها العقل و المنطق أيضا و يمكن ضمان بقائها كفكرة دائمة (٢٧). و نالت عملية ترسيخ النزعة التوحيدية قوة دفع بظهور الاسلام كدين لا يقبل مساومة على فكرة التوحيد (٢٨).

و نجد نفس النزعة تقريبا لدى اخلافه رامانوجا و فيسنو سوامي و نيمباركى فيما يتعلق بتثبيت فكرة التوحيد. و في عملية الاخذ و العطاء و التبادل الثقافي بين المسلمين و الهنود انه من الصعب تحديد نصيب كل من الطرفين و لكن الامر الذي لا يختلف فيه الاثنان هو ان المسلمين اخذوا افكارا كثيرة من الهند.

بالنسبة لفلسفة رامانوجا فاعترفت بوجود الله الواحد المتميز بصفات حسنة و ركزت على عبادته بالعقيدة و التفاني. و قد اعرب رامانوجا عن رغبته في فتح أبواب الدين للطبقات التي كانت مغلقة لها حتى الان، و الحب ينال مكانا هاما لديه ليس في علاقة الانسان مع الله فحسب و إنما في علاقة الإنسان مع الإنسان (٢٩).

و ينعكس النفوذ الإسلامي في الخصائص الاخرى لافكار جنوب الهند من القرن التاسع و منها التاكيد المتزايد على التوحيد و الخشوع و الخضوع في العبادة و تكريم المعلم بالاضافة إلى التخفيف من قسوة التمييز الطبقي.

إن فكرة الخضوع هي بمكان من الاهمية لدى راما نوجا و انه أخذ هذه الفكرة من الاسلام الذي يعنى الاستسلام التام لمام مشية الله. و هناك طائفتان اخريان تاثرتا بالاسلام و هما "ليتغايت" و سيدهار"(٣٠).

و نصل إلى نفس النتيجة بعد دراسة رامانند و كبير و الجورو نانك. و شف دراسة المصادر الثانوية مثل "اثر الإسلام في الثقافة الهندية" لمؤرخ معروف أن العلماء الكبار للقرن السادس عشر امثال "دهانا" و هو من منطقة راجبوتانا (ولد عام ١٤١٥م) و سائين و هو من باندو غاره و راى داس عامل المصنوعات الجلدية و الذي ولد في فارانسي و دادو ديال من ماروزار (ولد في

١٥٥٤م) و مالوك داس و سندر داس (ولد في ١٥٩٦م) من راجبوتانا و بيربان الذي ولد عام ١٥٤٣م في بنجاب الشرقية و لال داس و بابا لال في القرن السابع عشر و دهارى داس و بران ناث في النصف الثاني من القرن السابع عشر و جاغجيون داس من سروها في بارابنكى و ولد عام ١٨٧٦م و ديشو داس و تشرن داس من ميوات و الذي ولد عام ١٧٠٣م كانوا متأثرين بالتعاليم الإسلامية.

بالإضافة إلى هؤلاء كان هناك آخرون كثيرون ممن تأثروا بالأفكار الإسلامية و منهم غريب داس الذي ولد في روهتك عام ١٧١٧م و شاجا ناد من أيودهيا و ولد عام ١٧٨٠م و بالتو داس من فيض آباد وغيرهم من الزعماء الدينيين في بنغال و مهاراشترا، فجميعهم كانوا يتغنون بلحن واحد.

اما فيما يتعلق بالمسلمين الهنود فكان العالم العربي موضع احترام و تقدير لديهم و إن نمط عيشهم رغم كونه هنديا بأصله تاثر كثيرا بانماط العيش العربية و ينعكس هذا في مجال التعليم و المناهج الدراسية و المهرجانات و الأعياد. كما أن اللغة العربية ليست مصدر ايحاء للخط الفارسي و الأردي فحسب و إنما للغة السندية و الغجراتية أيضا و توجد كلمات عربية في عدة لغات هندية بعدد لا بأس به.

و لم يبق المسلمون الهنود بمنأى من أثر الإصلاحات التي شهدها العالم العربي و الاسلامي، على سبيل المثال توجد طبقات المتصوفين للعالم الإسلامي في الهند أيضا. و نلاحظ آثار الحركة الوهابية و حركة التجديد التي كان رائدها جمال الدين الأفغاني و محمد علي و أفكار الشيخ محمد عبده و رشيد رضا لدى المسلمين الهنود. و ما من كتاب في الأدب العربي و الموضوعات الإسلامية إلا أنه يوجد في دور الكتب في الهند.

و المسلمون الذين جاءوا إلى الهند استوطنوها و اصبحوا يعيشون مع الهندوس في وئام تام حيث لا يمكن التعايش بعداء مستمر و هذا الجو من التعاون و التعامل أدى إلى تفاهم متبادل بين المجموعتين و تطوير ثقافة جديدة لم تكن هندوسية أو مسلمة خالصة و إنما هي ثقافة مركبة نشهد مظاهرها في كل مكان و منها الهندسة المعمارية التي نسميها الهندسة المعمارية الإسلامية الهندية.

في مجال العلوم ورث الهندوس نظاما متطورا للرياضيات و علم الفلك و الطب و هم قادوا العرب في هذه الفروع للمعرفة الانسانية. اما العرب فجددوا معرفتهم على ضوء العلوم الاغريقية و الهندية و عندما جاءوا إلى الهند كانت لديهم نظم متطورة في هذه المجالات. فقام العلماء الهنود بترجمة الماجستي من العربية إلى السنسكريتية. و استعار الطب الهندي من المسلمين علم الحوامض المعدنية و نظما عدة في الكيمياء الفلكية و الفنون. و المسلمون هم الذين جاءوا إلى الهند بالابرة و روجوا فن صنع الورق و الحرف الاخرى. و قال الدكتور تاراتشاند حقا: "إن وجهة نظر الإسلام حول الحياة الاجتماعية تتميز بطابع ديمقراطي و لا تقيم قيمة كبيرة للنسل و الارث و إن تاثير الإسلام هو الذي خلق شعور العدل الإجتماعي بين الهندوس و أدى دوره في ازالة الحواجز الإجتماعية.

الهوامش:

١ـ هنتر. تاريخ الهند البريطانية. ج ١، ص ٢٥.

٢ ـ مقبول احمد. العلاقات الهندية العربية. ص ٣.

الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان و واجباته
و سياسة حقوق الإنسان

بقلم: أ. د. طاهر محمود تعريب: د/ ولي اختر الندوي

في أي حقبة من التاريخ البشري، و في أي بقعة من العالم البشري، برزت رؤية حقوق الإنسان إلى حيز الوجود؟ إن الجواب المبتذل لهذا السؤال الذي يقدمه أغلب الباحثين الغرب المعاصرين هو "انها نشأت في عهد قريب جدا، و في الغرب بدون ريب". إن هذا الإيمان، أو الإيمان الخاطئ كما هو في واقع الأمر، لا يمكن ان يحصل الشرعية إلا إذا تم تفسير تعبيري "التاريخ البشري" و "العالم البشري" و "بالتاريخ الغربي" و "العالم الغربي" على وجه التحديد لاغير. بل إذا تم شرح "حقوق الإنسان" برؤية خاصة و نوعية خاصة لحقوق الإنسان يؤمن بها العالم الغربي المعاصر. و لكن على الجانب الآخر إذا تم توسيع نطاق حقوق الإنسان حتى يشمل جميع المظاهر الدينية و الثقافية و الإجتماعية و القانونية التي شهدها العالم البشري في جميع اقطاره و في مختلف فتراته التاريخية، فيجب على المرء ان يعترف بأن رؤية حقوق الإنسان ليست حديثة النشاة، و لا تعود جذورها إلى الغرب، بل إن نشاتها و تطورها البدائي إنما تحقق في منطقة أخرى غير الغرب.

و أما بخصوص دين الإسلام، فإنه كان حركة لحقوق الإنسان وجهت طاقاتها ضد المظاهر المشينة بالإنسانية التي كانت سائدة على زمن ظهوره، في المنطقة التي أشرق منها نوره و المناطق المجاورة لها. إن سيدنا محمدا صلى اللّه عليه وسلم. الذي بعث رسولا في القرن السابع الميلادي، قد بشر بدين العالم الجديد الذي يعرف بدين الإسلام، و قد كان بدون منازع من كبار المصلحين الإجتماعيين الذين عرفهم التاريخ البشري، و كان انذاك سابقا لزمانه في افكاره و وجهات نظره. و إن عقيدته المتمثلة في الإسلام كانت بدون شك اكثر من عقيدة روحانية محضة. و لا مراء في أنه كان من أشرف الفلسفات الإنسانية، و نظاما للقيم البشرية العظيمة، و منهجا حقيقيا للخلق البشرى المحترم. و إنه من المؤسف، بل من الظلم الشنيع حقا، ان ينظر إليه صلى الله عليه وسلم الآن كمؤسس لديانة واحدة أضيفت إلى قائمة الديانات التي كانت متواجدة منذ سالف الزمان. إن إسهامه العظيم في تطوير الحضارة الإنسانية، في جميع مظاهرها و نواحيها، بما فيها الاعتراف بحقوق الإنسان، يجب ان تقربه البشرية جمعاء اليوم، مع الشكر و الامتنان، و تقدره تقديرا لألقابه، إذا نظرت إليه بعيون لم يعمها التحامل و قلوب لم تغشها العصبية.

و كذلك يجب الاعتراف بالإسهام الريادي للإسلام في نشأة حقوق الإنسان، إذا نظرنا إلى حقوق المضطهدين دون الظالمين، و حقوق الذين وقع عليهم العدوان دون المعتدين. و حقوق ضحايا الإجرام دون المجرمين، و حقوق الابرياء دون الاثمين. كما لا يمكن إنكار مبادىء الإسلام و دوره في تنمية قانون لحقوق الإنسان يلقى الإكبار و الاحترام، إذا نظرنا إلى حقوق افراد الناس بالمقارنة مع واجباتهم الإنسانية المماثلة، و إذا لم تكن مصالح المجتمع البشري ككل خاضعة للحرية الشخصية للافراد، و إذا كان المقصود من العناية بحقوق

الإنسان السعي لإيجاد حضارة بشرية قائمة على المساواة حقا، و إذا لم تفسر حقوق الإنسان لتعني ترخيصا للحرية المطلقة و علامة خضراء لأعمال الخلاعة و المجون بدون وازع و لا رادع.

إي إمريء يستطيع ان يشك في هذه الحقيقة الناصعة ان الإسلام في نشاته كان ميثاقا للمبادىء الإنسانية المنعشة استهدف الترقية الإجتماعية للإنسان؟ و أن الإنسان احتل مركزا محوريا في تعاليم الإسلام كلها؟ إن المفسر المعروف لمعاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، عبد الله يوسف علي، قد استهل تفسيره لآيات القرآن الكريم بالكلمات التالية ذات المغزى:

"الحمد اللّه العلي، اللطيف، الرحيم الذي خلق كل شيء بما فيه الإنسان و كرم الإنسان بمكانة خاصة بين خلائقه و تحقيقا لذلك وهبه العقل حتى يستطيع أن يدرك الطبيعة و يدرك نفسه".

و من الجدير بالملاحظة ان النبي صلى اللّه عليه وسلم و الكتاب الذي جاء به قد تحدث كل منهما بوضوح عن حقوق الإنسان في كلمات متنوعة و مصطلحات اكثر حداثة. إن الرؤية المزدوجة لحقوق العباد و حقوق اللّه قد مثلت الحقوق الفردية للإنسان و واجباته المجتمعية على الترتيب. و إنهما معا تشكلان التشريع الإسلامي الحديث لحقوق الإنسان.

إن الإهتمام الأساسي الأكبر لرؤية حقوق الإنسان في الإسلام هو كرامة الإنسان. إن عقيدة التوحيد في الإسلام ـ أي الإيمان بإله أسمى مع إنكار كل شخص أو شيء آخر سبق ان عبده الإنسان في آي زمان ـ يستهدف إعطاء الإنسان الحق الاساسي في الكرامة البشرية و ضمانه له. و إن جعل اللّه ـ عزوجل ـ فوق و بمنأى من جميع أنواع الشراكة و العلاقة، بصورة تامة و كاملة،

يعني في الواقع صيانة الكرامة الفطرية للإنسان. و وفق تصريحات القرآن الكريم أمر الملائكة بالسجود امام الإنسان، و لم يحدث العكس منه. و إن كل شيء تشتمل عليه الطبيعة ـ على الارض و في السماوات ـ جعل خاضعا لعقل الإنسان، و لم تعتبر الطبيعة او شيء ما فوق الطبيعة جديرة بعبادة الإنسان. و هكذا عينت التعاليم الإسلامية بالحفاظ على كرامة الإنسان عناية بالغة. و إن توكيدها البالغ على التوحيد و على الشجب الكامل لجميع انواع الشرك. قد احل الإنسان في أرفع مكان للكرامة لم يعرفه التاريخ الإنساني قط.

و بعد كرامة الإنسان، عني الإسلام بتحقيق المساواة البشرية. افليس من اللافت للنظر ان في زمان مبكر في القرن السابع الميلادي سمع الإنسان كتاب الإسلام المقدس يعلن مبدأ مساواة الإنسان بدون اي تمييز على اساس المولد او القومية أو العرق. فقد صرح القرآن الكريم:

"يا ايها الناس! إنا خلقناكم من ذكر و انثى، و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم" (الحجرات/١٣)

و مؤكدا على رسالة المساواة البشرية استضاف القرآن الكريم قائلا:

"و من آياته خلق السماوات و الأرض، و اختلاف السنتكم و ألوانكم. إن في ذلك لآيات للعالمين" (الروم/ ٢٢)

و قام رسول الإسلام بشرح و إيضاح الحكم القرآني حول حق الإنسان في المساواة، و وجه نداء واضحا من مرتفعات جبل عرفات قائلا:

"يا أيها الناس! لا فضل لعربي على عجمي، و لا لعجمي على عربي، و لا لابيض على اسود، و لا لاسود على ابيض. كلكم من آدم و آدم من تراب".

لقد كان هذا في الواقع إعلانا صريحا لرؤيتين إسلاميتين توأمين في وقت واحد، و هما رؤية المساواة البشرية و رؤية العالم الواحد للجميع. و على هذا الإعلان نفسه تقوم الرؤية الإسلامية الخاصة بسيادة القانون. ففي المجتمع الإسلامي المتنامي حديثا لم يكن شخص ما فوق القانون، و أن قانونا واحدا بالذات كان ينفذ في حق الحاكم و الرعية، و لم تكن فيه ازدواجية و لا ثنائية المبادىء، و لا أحكام قائمة على التمييز نظرية و تطبيقا و تنفيذا للقانون.

إن التعاليم الإسلامية عن المساواة العنصرية للإنسان، و التعددية الاجتماعية الثقافية، و العالم الواحد للجميع كلها حقائق معروفة بحيث لا يحتاج إلى الشرح و البيان، و هي لم تكن تتسم بالمثالية المحضة، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم نقل هذه التعاليم إلى عمل واقعي ملموس. و إن تواجد ثالوث سلمان الفارسي و صهيب الرومي و بلال الحبشي بين أصحابه الكرام قد مثل مشهدا عجيبا للمساواة و الأخوة المتعددة الأعراق و القوميات.

إن فيلسوف الشرق و شاعره العظيم الدكتور السير محمد إقبال قد صب الرؤية الإسلامية الثورية الخاصة بالمساواة البشرية في قالب شعري رائع في هذه الابيات الجديرة بالحفظ:

ایک ہی صف میں کھڑے ہو گئے محمود و ایاز — نہ کوئی بندہ رہا نہ کوئی بندہ نواز
بندہ صاحب، محتاج و غنی ایک ہوئے — تیری سرکار میں پہونچے تو سبھی ایک ہوئے

(لقد قام الحاكم و المحكوم في صف واحد جنبا إلى جنب و تلاشى الفرق و التمييز بين المملوك و المليك في حضرة الإله القدير أصبحوا شخصا واحدا و انمحى الاختلاف بين العبد و السيد و الثري و الفقير)

إن الرؤية الحديثة عن وحدة شعوب دولة و مساواتها هي في الواقع بديل متواضع لرؤية الإسلام عن الوحدة البشرية العالمية و الأخوة الكونية. و قد أوضح الدكتور إقبال هذا الاختلاف في هذه الابيات الرائعة:

تفریق ملل حکمت افرنگ کا مقصود   اسلام کا مقصود فقط ملت آدم
مکہ نے دیا خاک جنیوا کو یہ پیغام   جمعیت أقوام یا جمعیت آدم

(إن أساس السياسة الغربية هو اختلاف القوميات أما هدف الإسلام فهو أسرة إنسانية واحدة وجهت مكة المكرمة نداء إلى ارض جنيف تريدين وحدة الشعوب أم وحدة الإنسان؟)

إن كرامة الإنسان و المساواة و الأخوة ليست اقل أهمية في التشريع الإسلامي لحقوق الإنسان من الحياة الإنسانية نفسها، فأوضحت المبادىء الإسلامية أن الحياة حق مقدس، و يجب الا تنتهك حرمته. و حذر القرآن الكريم في آيات كثيرة:

"و لا تقتلو النفس التي حرمها" (الأنعام/ ١٥٢) و (بنى اسرائيل/٣٣)

و قال النبي صلى الله عليه وسلم في خطابه العام الأخير من جبل عرفات:

"الا إن دماءكم و اموالكم و اعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، حتى تلقوا ربكم".

و بالاضافة إلى حقوق الإنسان الاساسية في الحياة و الكرامة و المساواة هناك عدة حقوق ثانوية أخرى قد فرضها القرآن الكريم أو السنة النبوية أو كلاهما في عبارات واضحة. منها حق الاحترام و الحشمة، و حرية الضمير

و العقيدة، و استحقاق العدل و المعاملة العادلة، و ما إلى ذلك، تنظمها و تساوقها التزامات بإعطاء هذه الحقوق نفسها للآخرين، و عدم التمتع بها على حسابهم، و تربية على الاحترام المتبادل بين الأعراق و القبائل البشرية المختلفة أمر القرآن الكريم:

"لا يسخر قوم من قوم، عسى أن يكونوا خيرا منهم، و لا نساء من نساء عن أن يكن خيرا منهن" (الحجرات/١١)

و أما ما يتعلق بحرية الضمير، فقد صرح القران الكريم:

"لا إكراه في الدين" (البقرة/ ٢٥٦)

و فيما يخص الحق في العدل، فقد أمر القرآن المجيد الحكام:

"ان تحكموا بالعدل" (النساء/٥٨)

و أعلن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المبادىء الإنسانية بقوله:

"فإن الإمام ان يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة" (باب ما جاء في درء الحدود/ أبواب الحدود/ سنن الترمذي)

و ضماناً لحق السرية حذر القرآن الكريم:

"لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا و تسلموا على أهلها" (النور/٢٧)

"و لا تجسسوا" (الحجرات/١٢)

و للحفاظ على كرامة العمل و إنسانية الأجير، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ان يعطوا الأجير أجرته:

"اعطوا الأجير اجرته قبل ان يجف عرقه".

علـى هذه التعاليم الأساسية للقرآن الكريم و السنة المطهرة عن الحقوق و الـواجبات الأساسيتين للإنسان، قام العلماء المسلمون خلال القرنين الماضيين بـبـناء صرح فخم لتشريعات حقوق الإنسان التي لا تزال محفوظة في كتب الفقه الإسـلامـي الـقـديـمـة. و قـد صـدق الـكـونـت لـيـون اسـتـروروز (Count Leon Ostroroz) حين اعترف في لقاء اكاديمي بلندن قائلا:

"إن أولـئـك الـمـفكرين الشرق الذين عاشوا في القرن التاسع قاموا، على أساس تعاليمهم الدينية، بوضع مبادىء حقوق الإنسان في نفس هـذه الـمـصـطـلـحـات، الـتـي كـانـت تشمل حقوق الحرية الفردية و قـدسـيـة الـحياة و الممتلكات. و اوسعوا بيانا تشريعا حربيا تحمر لـقـوانـيـنـه الإنسانية المتسمة بالشهامة وجوه عدة دول شاركت في الـحـروب الـعـالـمـيـة. و قـدموا رؤية تسامح كبير تجاه العقائد غير الإسـلامـيـة لدرجة يجب على عالمنا الغربي أن ينتطر الف سنة قبل أن يرى دوله تختار مبادىء مماثلة لها. "

(Angora Reform, 1927, pp 30-31)

و إن الـقـاضـي سـي جـي ويرامانتري (Justice CG Weeramantry) هو الآخر قال الحق، و لم يكن قوله إلا حقا، حينما ذكر بعد ستين سنة:

"و فـي الـغـرب وقـعـت حروب لأجل حقوق الإنسان، و نزعت من أيدي الـذين كانوا في السلطة انتزاعا في سلسلة مرة من نزاعات الإنسان ضـد الإنسان. و قد اكتسبت هذه الحقوق العلمانية بعد كفاح طويل، و هـي طـبـعـا تـسـتـحق إجلالا كبيرا. و لكن في دين الإسلام لا ينظر

المرء إلى هذه المشكلة في مثل هذه الخليفة العلمانية. فليست المشكلة كيف يلح الإنسان على حقه على إنسان آخر، بل كيف يؤدي الإنسان واجباته تجاه الله عز و جل. فلا تهم للإسلام كثيرا العلاقة الأفقية للإنسان مع أخيه الإنسان، و لكن العلاقة العمودية التي تتواجد بين كل إنسان و خالقه، فإذا وصلت العلاقة العمودية بصورة مناسبة فإن مشاكل حقوق الإنسان بأجمعها تنحل بالفور. إن علاقة الإسلام مع الإله و التوكيد على رؤية الواجبات لا بد أن تؤدي إلى التزام أكثر تكريسا و إفادة بحقوق الإنسان، مما يمكن أن يتواجد في أي نظام آخر يعتمد على تنزيلات تمنح على مضض تحت ضغوط اضطرارية".

(Islamic Jurisprudence 1988, p 116)

حينما بدأ العالم الغربي يركز عنايته في القرن الراهن على ضرورة إعلان و تشكيل حقوق الإنسان، فلم يقصر العالم الإسلامي عن مد يد العون إليه مع تراثه المجيد و تشريعاته القائمة على الروحانية لحقوق الإنسان. فقد شاركت عدة دول إسلامية مشاركة فعالة فيه، و بالتالي قامت بإثراء المناقشات التي انتهت بإعداد و تبني الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في عام ١٩٤٨م، و أكدت و طالبت باعتراف مماثل للحقوق الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية أيضا. و كذلك دعوا إلى إقرار حق تقرير المصير. و قد انعكس بصورة بارزة الإسهام القيم للعالم الإسلامي في تطوير تشريعات حقوق الإنسان للإنسان الحديث في تاريخ الميثاقين العالميين حول الحقوق المدنية و السياسية و حول الحقوق الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية. و بالإضافة إلى هذه المشاركة النشطة في الجهود العالمية المشتركة للاعتراف بحقوق الإنسان و إعلانها، لم يزل العالم

الإسلامي يبذل جهده أيضا لتقديم نظرياته القديمة و قوانينه البناءة حول حقوق الإنسان في صياغة و مصطلحات قضائية حديثة.

ففي عام ١٩٦٨م، العام العالمي لحقوق الإنسان، قامت جامعة الدول العربية بعقد مؤتمر عربي إقليمي في بيروت، حيث قررت إنشاء لجنة عربية دائمة حول حقوق الإنسان. ثم في عام ١٩٧٩م اقترح اتحاد المحامين العرب في مؤتمر في بغداد توقيع ميثاق عربي حول حقوق الإنسان يكفل حقوق الناس في منظور إسلامي. و لا حقا في اجتماع للقضاة العرب في Syracufe، تم الإقرار بمسودة ميثاق لحقوق الإنسان و الشعب في العالم العربي، و ذكر بإسهاب الحقوق المدنية و السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية لمواطني الدول العربية. و أخيرا في شهر سبتمبر لعام ١٩٩٤م أقر مجلس جامعة الدول العربية بالميثاق العربي لحقوق الإنسان، و ذلك عن طريق تسوية إقليمية يشبه المواثيق الاوروبية و الامريكية حول حقوق الإنسان و الميثاق الإفريقي حول حقوق الإنسان و الشعب. و قبل ذلك قام المجلس الإسلامي الأوربي بإعلان بيان إسلامي عالمي لحقوق الإنسان في عام ١٩٨١م في المؤتمر الإسلامي المنعقد في فرنسا. إن هذه الوثيقة غير الرسمية قد ذكرت ٢٢ حقا مختلفا للإنسان، يمكن إيرادها بصورة وجيزة فيما يلي:

١ ـ حق الحياة.

٢ ـ حق الحرية الشخصية.

٣ ـ حق المساواة و الحماية ضد التمييز غير الشرعي.

٤ ـ حق العدل.

٥ ـ حق المحاكمة العادلة.

٦ ـ حق الحماية ضد سوء استعمال السلطة.

٧ ـ حق الحماية ضد التعذيب البدني.

٨ ـ حق صيانة الشرف و الكرامة.

٩ ـ حق اللجوء السياسي.

١٠ ـ الحق في الاعتراف كاقلية دينية مع الواجبات الملازمة له.

١١ ـ حق المشاركة في الشئون العامة.

١٢ ـ حق حرية العقيدة و الفكر و التعبير.

١٣ ـ حق حرية الديانة.

١٤ ـ حق إنشاء الجمعيات.

١٥ ـ حق الانتفاع بنظام اقتصادي عادل.

١٦ ـ حق صيانة الممتلكات.

١٧ ـ حق كرامة العمل و العامل.

١٨ ـ حق الأمن الاجتماعي.

١٩ ـ حق الحياة العائلية.

٢٠ ـ حق التعليم.

٢١ ـ حق السرية.

٢٢ ـ حق حرية التنقل و السكن.

و مما لا شك فيه أن ما قامت به المنظمات و الدول المسلمة من إسهام في تطوير المواثيق العالمية العامة حول حقوق الإنسان، و ما انشئت من مواثيق إسلامية مماثلة، إنما تلقت استيحاءها بهذا الخصوص و اراءها الخاصة ايضا من التشريعات الإسلامية الغنية جدا لحقوق الإنسان.

إن الدساتير التي يجري تنفيذها الآن في اغلب الدول المسلمة المعاصرة قد تضمنت الحقوق الأساسية و الحريات المدنية للمواطنين التي تنسجم مع كل من النظريات الإسلامية و الآراء الدولية المعاصرة لحقوق الإنسان. فالدستور المصري لعام ١٩٨٠م ـ على سبيل المثال ـ يبين في ٢٤ مادة (٤٠ ـ ٦٤) في الجزء الثالث من الدستور "الحريات و الحقوق و الواجبات العامة". و إن ثماني حقوق إسلامية مضمونة للمواطنين في هذه المواد هي كما يلي:

١ ـ الحق في المساواة أمام القانون، و عدم التمييز (المادة/٤٠)

٢ ـ الحق في الحرية الشخصية (المادتان/٤١ ـ٤٢)

٣ ـ الحق في السرية (المواد/٤٣ ـ ٤٥)

٤ ـ حرية المهنة و ممارسة الديانة (المادة/ ٤٦)

٥ ـ حرية الفكر و الخطاب و التعبير (المواد/ ٤٧ ـ ٤٩)

٦ ـ حرية السكن و التنقل (المواد/ ٥٠ ـ ٥٢)

٧ ـ حرية إنشاء الجمعيات و المنظمات (المواد/ ٥٤ ـ ٥٦)

٨ ـ الحق في المشاركة في الإجراءات السياسية (المواد/ ٥٧ ـ ٦٠)

و من الجدير بالذكر ان الدستور المصري يامر الدولة بأن تضمن "حق اللجوء السياسي" لكل مواطن أجنبي اضطهد للدفاع عن مصالح الناس و حقوق الإنسان و السلام و العدل (المادة/ ٥٣). و في دستور الإمارات العربية المتحدة ايضا قد وضع للجزء الثالث من الدستور (المواد/ من ٢٥ إلى ٤٤) عنوان "حريات و حقوق و واجبات الناس". و إن فقراته هي الأخرى هي نفس التي توجد في الدستور المصري.

كما توجد فقرة جديرة بالملاحظة للغاية في القانون الأساسي للحكم للمملكة العربية السعودية (الذي تم الموافقة عليه بتاريخ ٢٧/ شعبان المعظم ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، و هي تقول إن من واجب الدولة ان تحمي حقوق الإنسان وفقا للشريعة الإسلامية. و إن الفصل الخامس لهذا القانون الذي عنوانه "الحقوق و الواجبات" (المواد/ ٢٣ ـ ٤٣) يضمن للناس عدة حقوق قيمة توجد حقوق مماثلة لها في وثائق حقوق الإنسان المعترف بها دوليا.

و كذلك لا يخلو من الأهمية ان جميع دساتير العالم الإسلامي المعاصر، في فصولها الخاصة عن حقوق الناس، قد قرنت هذه الحقوق بالواجبات الأساسية للناس. و إن هذا يتفق بصورة بارزة و رؤية الإسلام الأساسية التي تحدث الإتزان بإخضاع الحقوق للواجبات، و بالتالي تدعو إلى أداء أمين للواجبات كتصريح للتمتع بالحقوق الشرعية. و لا يوجد ما يماثل هذه الواجبات المعلنة دستوريا للناس في الدول الأخرى خارج العالم الإسلامي بصورة عامة. و أما في الهند فإن الدستور الذي تم إقراره بادى ذي بدء في عام ١٩٥٠م، لم يتضمن فصلا عن واجبات الناس، و لكن عن طريق تعديل اجرى بعد مضي ٢٦ سنة في عام ١٩٧٦م اضيف فصل متكون من مادة واحدة صغيرة حول الواجبات الأساسية في الدستور الهندي (الجزء الرابع ــ الف/ المادة ـ ٥١ الف). و القانون

الدولي لحقوق الإنسان هو الآخر لم يتم حتى الآن بوضع تشريع للالتزامات الانسانية. و لكن في وقت لاحق في شهر سبتمبر لعام ١٩٩٧م قام مجلس العمل المتبادل الدولي (International Inter-Active Council) باقتراح مسودة غير رسمية لإعلان عالمي للمسئوليات الإنسانية. و قد قامت هذه المسودة على هذه النقاط العامة:

> "إن سيادة القانون و تنمية حقوق الإنسان تعتمدان على استعداد الناس، رجالا و نساء، على العمل بصورة عادلة". و "إن الإلحاح الكلي على الحقوق يمكن أن يؤدي إلى النزاع، و الانقسام، و الخلافات غير المتناهية، كما أن إغفال المسئوليات الإنسانية قد يؤدي إلى الفوضى و فقد القانون أهميته".

و إن المسئوليات الإنسانية التي ذكرت في هذه الوثيقة غير الرسمية لعام ١٩٩٧م، من أهمها:

١ ـ مسئولية معاملة الناس بطريقة إنسانية.

٢ ـ مسئولية احترام الحياة.

٣ ـ مسئولية التعامل مع الاستقامة و الأمانة و العدالة.

٤ ـ مسئولية قول الصدق و العمل به.

٥ ـ مسئولية إبداء الاحترام و العطف للآخرين.

إن كلا من النقاط العامة و المواد المحددة لمسودة هذا الإعلان ١١ مسئوليات الإنسانية تبرران موقف الإسلام منذ الاربعة الف قرنا أن حقوق الإنسان و واجباته مترابطة و ينحصر بعضها على البعض، و يجب أن تكون كذلك، و أن كل حق للإنسان الفرد يوجد إزاءها التزام إنساني مماثل.

و ختاماً، اود ان اقول إن رؤية "حقوق الإنسان" ليست قطعا رؤية أجنبية بالنسبة إلينا ـ نحن مسلمي العالم المعاصر ـ فقد تحدث عنها ديننا في عهده الأول، و أوسع القرآن الكريم و الحديث الشريف و كتب الفقه الشاملة فيما بعد البيان عنها. و في السنوات الراهنة قد شاركنا في الصياغات الدولية لحقوق الإنسان، كما قمنا بصياغتنا نحن ايضا، و ذلك في ضوء التوجيهات التي أمرتنا بها عقيدتنا السمحة بهذا الخصوص. فلا حاجة بنا ان نتلقى من الآخرين الدروس في حقوق الإنسان. كما لا شك في اننا نرضى بصورة مبدئية بجميع الصياغات الدولية المعاصرة حول حقوق الإنسان، بل إننا نستطيع ان نثريها بقيمنا الروحية و تجاربنا الوطنية أنفسنا. مهما يكن الأمرء إنه لا يمكن ان يسلم بأن للغرب احتكارا أو دعوى مقصورة عليه لبدء حقوق الإنسان و تطويرها و تشكيلها و تبنيها و ممارستها. و في خلفية القانون الدولي المعاصر حول حقوق الإنسان يوجد أيضا التشريع الإسلامي الثري عن حقوق الإنسان و انعكاساته في صورة إسهام الشعوب المسلمة في الإجراءات الإعدادية، الأمر الذي مهد السبيل ليجد هذا القانون سبيله إلى كتب التشريعات. و إن إنكار هذه الحقيقة إنما هو ظلم و همجية.

و فيما ارى أن العالم الإسلامي يجب ان يكون اكثر إلحاحا، فما كان في الماضي، على أن يعترف الناس على مستوى العالم بتراثه المجيد و إسهامه الخاص و اهتمامه الحقيقي بحقوق الإنسان الواقعية. و فيما أرى أنها تكون خطوة مباركة إذا قام العالم الإسلامي بإنشاء مجموعة مراتبة إسلامية لحقوق الإنسان لمراتبة وضع حقوق الإنسان في العالم كله. و في الوقت نفسه يجب أن يتخذ خطوات بناءة تجاه تطوير تعليم لحقوق الإنسان، ليعلم نفسه و سائر العالم التشريع الإسلامي و القانون الدولي المشترك لحقوق الإنسان و أبعاد

علاقتهما الثنائية. إننا نحن ـ مسلمي العالم المعاصر ـ ندين لديننا الحنيف بان نقوم بتوعية العالم بموقف الإسلام و عنايته بحقوق الإنسان. و هو واجب مقدس يعود علينا. كما يتحتم علينا الا تبقى تشريعات الإسلام النبيلة حول حقوق الإنسان مقصورة على كتبنا الدينية و كتب الاحاديث و الفقه الإسلامي. إن قانون حقوق الإنسان الإسلامي هو أثمن شيء نملكه. فلا بد ان نشاطره سائر دول العالم عن طريق إعداد قانون إسلامي حقيقي للحقوق، و اخيراً عن طريق تطبيقه و تمثيله عمليا و إيضاحه بوسائل مناسبة و أشكال ملائمة.

و اخيراً اقول كلمة إن بعض الباحثين المنصفين ذوي النوايا الحسنة، في كل من الشرق و الغرب، قد أنذرونا من سوء استعمال رؤية حقوق الإنسان لاغراض دنيئة. فعلى سبيل المثال، قد تحدث السير ستيفن سيدلى (Sir Stephen Sedley) عن "اللغة المنمقة الطنانة" و ابدى ملاحظته التالية:

"إن الرسالة التي توجد بين السطور هي ان حقوق الإنسان سلعة مثل السلع الاخرى، يمكن الاتجار بها لاغراض سياسية و اقتصادية".

(Human Rights for the 21st. Century, p-1)

إن هذا التحذير من اتجاه التسييس و الاتجار بحقوق الإنسان يجب أن يُنصت له بصورة واعية في كل مكان، و ليس اقل من اي مكان في العالم الإسلامي المعاصر؟

تراث الهند في القرون الوسطى
و البحث عن التقاليد العلمية

بقلم: أ. د. سيد نقي حسين الجعفري تعريب: د/ حبيب اللّه خان

حـين كتب السير سيد أحمد خان مقاله الشهير في تأييد النظرية القائلة "بـأن الأرض ثـابـتـة و الـشمس تدور حولها" بعنوان "قول متين در إبطال حركت زمـين" فـإنـه حـتما لم يكن يعرف بأن هذه النظرية التي تقول "إن الارض ثابتة وسـط الـكون و أن الـشـمـس و الـقـمر و الكواكب تدور حولها "لقد ثبت بطلانها تـمـامـاً، و لـعـلـه لم يكن يعرف ايضا أن العالم الفلكي البولندي كوبرنيكوس قبل حـوالـي ثـلاثـمـائة سنة في عام ١٥٤٠م قدم نظرية جديدة من خلال بحثه العلمي بعنوان "The Revolutions of the Celestial Spheres" (اي دوران الاجرام الـسـمـاويـة) مـقـابـل نـظرية بطليموس (Ptolemy) القائلة "بدوران الشمس" و بـرهن كـوبـر نـيـكـوس عـلـى دوران الـكرة الأرضية ذاتها و حول الشمس، و قد احـدثـت هـذه الـنـظـريـة ضـجة و ثورة كبيرتين في الأوساط العلمية في أوربا، و أقـامـت الـدنيا و اقعدها، ثم كسبت هذه النظرية مزيدا من القوة و التأييد من اخـتـراع الـمـنـظـار و الأبـحـاث الـقـيـمـة الـتي قام بها غاليليو (العالم الفلكي الإيـطـالـي)، و فـي القرن السابع عشر اصبحت هذه النظرية من المسلمات بها، و هـنـا يـبـرز الـسؤال ان الـسـيـر سيد أحمد خان الذي يعتبر اكثر علماء عصره مـعـرفة و علما، كيف بقي لا يعرف هذه النظرية؟ في حين أنه كان يعرف إضافة

إلى اللغة الاردية العربية و الفارسية ايضا، في ضوء هذا يمكننا ان نستنتج ان نظرية كوبرنيكوس لم تنتقل إلى اية لغة من اللغات المستخدمة في البلاد الإسلامية حتى ذلك الحين، قد يعود سبب ذلك إلى عدم معرفة المسلمين باللغات الأوربية الحديثة، بينما كان العلماء العرب يعرفون جيدا اللغة اللاتينية و السريانية في العهدين الأموي و العباسي، و لكن في عصر كوبرنيكوس، حلت اللغات العلمية الحديثة محل اللغة اللاتينية في اوربا، و هذا هو السبب الذي حال دون معرفة المسلمين بالاختراعات و الافكار العلمية التي كانت تحدث في اوربا، و لم يمنع السير سيد أحمد خان من كتابة هذا المقال، إن هذا الواقع إن دل على شيء فإنه يدل على أن انقطاع التقاليد العلمية و ضعفها أدى العالم الشرقي كله بشكل عام و المسلمين بشكل خاص إلى تخلف و انحطاط، و فيما يتعلق بالهند فلا نجد أية تقاليد علمية حتى أثناء قيام السلطنات و الإمبراطوريات الكبرى للمغول وغيرهم من الملوك الكبار، عندما نتحدث عن التقاليد العلمية القومية ترتسم في أذهاننا صورة واضحة و مزدانة بالمآثر العملية لبغداد و قرطبة في عصر المامون و المتوكل و عبد الرحمن الناصر على وجه الترتيب، إن الصورة الذهنية لبغداد لا تقتصر على عصر المامون و المتوكل فحسب، بل تشمل دور العلماء العرب كلهم في العهدين الأموي و العباسي، و ما بذلوا من جهود مضنية في تفعيل الحركة العلمية و تطويرها و ترويجها و قيادتها، كما تشمل صورة قرطبة تاريخ التقاليد العلمية الحافل بالمنجزات الثقافية و الحضارية التي قدّمها العلماء العرب على مدى سبعة قرون من الزمن إبّان حكمهم على الاندلس، و التي ظلت منارة الهدى للعالم المتحضّر بأسره لقرون طويلة، و تُعدّ الخلافة العباسية في عصر المامون التي

كانت ممتدة من إفريقيا الشمالية إلى السند في شبه القارة الهندية نموذجاً رائعاً للتقاليد العلمية بسبب تقدّمها في كل مجالات الحياة، و كانت تمتاز هذه الخلافة العظيمة بوجود مركز علمي في كل مدنها كبيرة كانت أو صغيرة، و يتبين مدى انتشار العلم في ذلك الزمان من قصة ذكرها العلامة شبلي النعماني في كتابه "المأمون" لما بلغت شهرة المأمون في إكرام العلم و العلماء إلى العلامة نضر بن شميل عزم على السفر من البصرة إلى خراسان، فخرج لتوديعه حشد من الناس يُقدر عددهم ثلاثة آلاف رجل و كل رجل في هذا الحشد إما كان محدثا أو نحويا او لغويا اي ماهرا في فن من فنون المعرفة"، و في عصر المأمون إذا كان كبار رجال الفكر و الدعوة أمثال الإمام البخاري و الإمام الشافعي و الإمام أحمد بن حنبل و الإمام الواقدي و حافظ بن هشام في جانب، فكان في جانب آخر أساطين العلوم و المعرفة أمثال المسعودي و حنين بن إسحاق و يعقوب الكندي و محمد بن موسى الخوارزمي و أبو العباس الفرغاني وغيرهم من العلماء الكبار الذين زيّنوا بيت الحكمة بوجودهم، و كان بيت الحكمة يضم العلماء و الحكماء من كافة انحاء العالم من دون ادنى تمييز على اساس الدين و اللغة، فكان فيه هندوسي و مجوسي و يهودي و نصراني كما كان فيه هندي و بيزنطي و إغريقي وغيرهم من ذلك، و في مثل هذه البيئة الملائمة استطاع العلماء العرب أن ينقلوا كافة علوم العالم إلى اللغة العربية ثم أضافوا إليها كثيرا من اجتهاداتهم على اساس تلك التراجم.

إن تاريخ العرب المجيد في الأندلس الذي يمتد على سبعة قرون، و كيف دالت دولتهم فيها، و النتائج المحزنة التي تلقوها، و كيف تم إخراجهم منها، كلها ماثل في الاذهان، و إن الحضارة العالمية ستظل تفتخر على المآثر

العلمية الخالدة التي تركتها الحضارة العربية في الاندلس و التي عملت كمقومات أساسية للنهضة الأوربية فيما بعد، و نجد تماثلا كبيرا بين عصري المامون و عبد الرحمن الناصر، لاننا نرى في عصر عبد الرحمن الناصر بشكل خاص، و على طول التاريخ العربي الاندلسي بشكل عام، أن العلوم الدينية و الدنيوية ترعرعت معاً، فإذا شهدت العلوم الدينية منها الفقه و التفسير و الحديث و السير ازدهارا كبيراً في جانب، ففي جانب آخر شهدت العلوم الدنيوية منها الفلسفة و علم الطبيعة و علم الطب و علم الجغرافية و علم الرياضيات و علم الهيئة و الفلك و علم التاريخ تقدماً هائلاً، و اضاف الاندلسيون إضافات ممتازة من نتاجهم في مجال الشعر و الادب مثل الزجل و الموشح، كما انجبت الأندلس أعلام كبار في شتى ميادين المعرفة، نجد في علم الجغرافية ابو حامد الغرناطي و الشريف الإدريسي و ابن جبير، و في علم الفلك البطروجي و بنوهود و الموتمن، و في علم التاريخ ابن بشكوال و ابن الضبي و العالم الشهير ابن خلدون، و في علم النباتات ابن الوافد و ابن البيطار و ابن صابن، و في علم الفلسفة ابن رشد و ابن باجة و ابن طفيل و ابن ميمون و الشيخ الكبير محي الدين ابن العربي، و في علم الجراحة ابو القاسم الزهراوي و بنوزهر، و في علم الطب ابن رشد و ابن ميمون و ابن الهيثم و ابن باجة و في العصر الأخير ابن الخطيب، لقد كانت هذه الاسماء متداولة في المعاهد و الجامعات العلمية في أوربا من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر.

و يمكن ان نتصور المكانة العلمية المرموقة التي بلغتها مدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي بفضل اهتمام الحكم الثاني خلف عبد الرحمن الناصر الذي شجّع العلوم و الآداب، و الذي حوّل هذه المدينة إلى سوق علمية كبيرة كانت تتوفر فيها كتب علمية و ادبية من كل الاقطار، و نكر السيد طفيل

الهاشمي في مقاله بعنوان "الأنشطة العلمية في الأندلس" المنشور في مجلة فكر و نظر، العدد الخاص بالتراث الإسلامي في الأندلس، "أن مدينة قرطبة كانت تضم عشرين ألف محل لبيع الكتب، و معظم تجار الكتب كانوا يطلبون من النسّاخ إعداد الكتب حسب اهتمامهم الخاص، و كانت قد أنشئت المكتبات العامة على نفقات الدولة في جميع المدن المهمة تقريبا، كما كانت ٧٠ مكتبة عامة في مدينة قرطبة فقط، و كانت هناك عدة مكتبات شخصية للرجال و النساء، و أكبرها مكتبة ابن فطيس التي كان يقوم فيها النسّاخ المهرة بنسخ الكتب دائما، و اشتهرت بين مكتبات شخصية عائدة للنساء مكتبة عائشة بنت احمد بن محمد قادم، و مكتبة خديجة بن جعفر التميمي". و واصلت الأندلس عطاءها العلمي و الأدبي حتى في عصر ملوك الطوائف المليء بالقلاقل السياسية، و بهذا الصدد ذكر الدكتور أمين اللّه وثير في مقاله المنشور في مجلة فكر و نظر العدد الخاص، "و في هذا العصر خرج الشعر و الأدب من محافل الشعراء و الأدباء و من بلاط الملوك و الأمراء و وصلا إلى محلات الصنّاعيين و المحترفين العامين و إلى مزارع الفلاحين و إلى أكواخ الكادحين، و أصبح كل شخص من الطبقات المتوسطة تقريبا، قادرا على تقديم إنتاج أدبي جميل".

و من المنجزات الحقيقية التي حققها الأندلسيون ـ ماعدا الفن المعماري و الصناعة و الحرفة و الزراعة و البستنة و تشجيع الشعر و الأدب و ترويج العلوم و الحكمة ـ هو إقامة مجتمع منقطع النظير ظل منارة الهدى لقرون طويلة للبلدان الأوربية التي كانت غارقة في الجهل و التعصب، و كان كل فرد في ذلك المجتمع ـ حاكما كان أو محكوما، رئيسا كان أو مرؤوسا، عالما كان أو نسّاخا، عربيا كان أو بربرا، مسلما كان أو غير مسلم ـ يتلهف لنيل الكمال و يسعى وراء تحصيل العلم و المعرفة و ينشغل بالبحث العلمي و التحقيق

الاكـاديـمـي، و كان قوام ذلك المجتمع التعاطف البشري و الأخوة الإنسانية التي لا يسعنا تصوّرها في الوقت الحاضر إلا في الحلم.

و أرى مـنـاسـبـا أن أسـتـشـهـد بقول دبلو. بي. إيتس (W.B.Yeats) حول بيـزنـطـة (القسطنطنية القديمة) "اعتقد انه في بيزنطة القديمة كانت الحياة الـديـنـيـة و الـجـمـالية و العلمية وحدة واحدة بشكل لا يوجد له مثيل فيما سبق او على الأقل في عصور التاريخ المسجل، فكان المعمار و الصانع و الشاعر ينقل نـفـس الـرسـالـة لـعـامـة الـنـاس و أخـيارهم، و كان الرسام و عامل الفسيفساء و الـصـائغ و الـمـجـلّد غـيـر واعين تقريبا بشخصيتهم الانفرادية او تصميمهم الانـفـرادي فـيما يتعلق بموضوعاتهم و كانوا يقدمون رويا لشعب بالجملة، و كان بإمكانهم أن ينقلوا من الكتاب المقدس تلك الصور التي تبلغ من القداسة درجة الـنصوص ذاتها و يعرضوها في تصميم أوسع يبدو عمل شخص واحد رغم كونه نـتـيـجـة جـهـود الـكـثـيـرين، فـسـواء كـان ذلـك في البناء او في التصوير او في المعمولات المعدنية كان يمثّل صورة واحدة".

و يُعدّ أبـو عـلـي ابن سـينا و أبو الريحان البيروني و عمر الخيام من نوابغ الـدهـر في علوم الطب و الفلسفة و الفلك و الرياضيات، و اكتسب البيروني الذي عـمـل فـي بـلاط الـسـلـطـان محمود شهرة عالمية بفضل كتابه الشهير "تاريخ الـهـنـد" كـان من مدينة غزنة، و كان أبو علي ابن سينا إيراني الأصل من بخارى، و كـان عمر الـخيام إيرانيا و اكتسب شهرة كبيرة من رباعياته، و كان ابن النفيس الـذي اكـتـشـف الـدورة الـدمـويـة قبل مئات السنين من الطبيب الإنجليزي وليم هارفي (William Harvey) من مصر.

لـقـد تـبيّن مـمـا جاء اعلاه أن المسلمين حتى القرن الثالث عشر و الرابع عـشـر الـمـيلادي كانوا يعتبرون العلم و الحكمة ضالة المؤمن، فكانوا يحرصون

على جمعها و اكتشافها و الاستفادة من خبرات و اكتشافات من سبقوهم في العلم، لذلك نجد ان علم العالم بأسره كان موجودا في الكتب العربية، و اللغة العربية كانت اكبر وسيلة لعلوم الدين و الدنيا كليهما.

و لكن لما نقرأ تاريخ الهند للقرون الوسطى نجد اشياء مختلفة تماماً، لان اوضاعها كانت تختلف عن اوضاع تلك البلدان التي كان يحكمها العرب، كما كانت تختلف المتطلبات الجغرافية و السياسية، و فوق كل ذلك ان الذين لعبوا الدور الرئيسي في صنع تاريخ الهند هم الاتراك و المغول، و هذه الشعوب لم تكن متحمسة مثلما كانت العرب في تعلّم العلوم و ترويجها، و فضلا عن ذلك لقد تأثّر العالم كلّه بحادث سقوط بغداد الذي تقشعر له الابدان هلعاً، و قد أثّر هذا الجمود الفكري في الأتراك و الإيرانيين و حتى في السلطنات التي قامت في الهند، و يكتب البروفسور مجيب في كتابه "حكاية العالم" حول السلطنة العثمانية، "لعل كان هذا النقص في سير الاتراك، أو أن نهج الحكومة الذي اختاروه حال دون تحقيقهم إنجازات تُذكر في مجال العلم و الأدب، و ما من شك في ان الشعراء و الأدباء وُلدوا فيما بينهم ايضاً، و لكنهم لم يستطيعوا أن يتجاوزوا حدود المحاكاة للأساتذة العرب و الإيرانيين، و تخلفوا في مجال العلوم اكثر من ذلك، مع انهم لم يكونوا اقل درجة من اي شعب آخر في فن العمارة، و يرجع سببه إلى ان المسلمين اغلقوا دفاتر علومهم تاركين همم البحث العلمي و التحقيق الاكاديمي" لقد أُغلق باب الاجتهاد امام العلوم النقلية و لكن المسلمين اغلقوا باب الاجتهاد امام العلوم العقلية ايضاً.

لقد شهدت الهند قيام السلطنات الكبرى في عهد السلاطين و بعد ذلك في عهد المغول على غرار الإمبراطورية العثمانية في تركيا، و السلطنة الصفوية في إيران، أن هذه السلطنات الثلاث تُعد من اكبر و اقوى الإمبراطوريات التي

قامت في القرون الوسطى، و لكنها رغم كبر حجمها و مساحتها، و وفرة وسائلها و كثرة عدد سكانها، و استقرارها السياسي و تفوّقها العسكري، و امتلاكها الصناعة و التجارة، لم تتمكن من تحقيق النتائج الرائعة في مجال العلم و الثقافة و التي حققها من سبقها في الوجود، و مع ان هذا الموضوع يخص علماء التاريخ و لكن ليس من الصعب للرجل العادي ان يصل إلى هذه النتيجة، و لعل من بين الأسباب الأخرى التي ادت إلى هذه الحالة هو ان وجهة نظر حكام هذه السلطنات تجاه الحياة و العالم كانت مختلفة، و قد لا يكون صعبا ان نفهم وجهة نظرهم نحو الحياة و العالم إذا ألقينا نظرة على هواياتهم و اولوياتهم.

لقد أولى الملوك الأتراك في الهند اهتماماً كبيراً بوسائل العزة و المكانة و الصيت و الشهرة و الجلالة و العظمة، في حين كان ينقصهم الحماس لتعميم العلم و ترويجه، نطلع عبر كتاب سيد صباح الدين عبد الرحمن بعنوان "مظاهر حضارية في القرون الوسطى" على تفاصيل غير متناهية للبلاط و عظمة البلاط و المحلات و الملابس و المجوهرات و أدوات التجميل و العطور و الماكولات و المشروبات و السلع و مستلزمات المجلس و أواني الطبخ و وسائل النقل و المراكب و الاحتفالات و الأعياد، بالإضافة إلى اهتمام الملوك في الهند بالمعدات العسكرية و فن العمارة و الصناعة و الحرفة و التجارة و رفاهية الشعب، لا يسمح هذا المجال أن نعدّد المنجزات التي تحققت في عهد السلاطين و المغول، بل نرى ما هي النتائج التي ترتبت نتيجة عدم اهتمامهم بالأمور المتعلقة بالعلوم و الثقافة، لا تقتصر هذه الحالة على الهند فحسب، و إنما تتجاوزها لتعمّ الخلافة العثمانية و الحكومة الصفوية و حكومة المملوكين في مصر، و يدلنا على هذه الحالة قول ابن خلدون الذي مفاده "لقد سمعنا أن في بلاد الإفرنج و في مناطق السواحل الشمالية من بحر الروم رواج كبير للفلسفة الطبيعية، و يتم تعليمها في الصفوف المختلفة بشكل متكرر،

و يتم شرح تلك العلوم بشكل واف، و يكثر عدد الذين يعرفونها كما يكثر عدد الطلاب ايضاً، والله اعلم، و لكن حسب رائي ان هذه العلوم لا تزيد شيئا من علومنا الدينية، لذا من الافضل أن نبتعد عنها".

و قد لا يكون من الخطأ إذ نقول إن العزلة الثقافية و عدم الربط مع العلم يستمران منذ أيام ابن خلدون حتى يومنا هذا، إن إغلاق الباب في وجه الاجتهاد اعطى الفقه مكانة متفوقة لا يُعلى عليها من ناحية، و من ناحية اخرى اسفر اهتمام الحكّام بالمنزلة و المكانة و سعيهم وراء اللذات عن ازدهار و تطور التصوف الذي جذب كل العناية و الاهتمام لتصفية الباطن، و يبدو أن هذه العوامل كلها، أحياناً بشكل فردي، و أحايين اخرى بشكل جماعي مشترك تسبب في إضعاف أو قطع أواصر المجتمع الإسلامي مع تقاليد علمية قومية لبغداد و قرطبة و غرناطة و بخارى و غزنة.

و لم يدرك المسلمون بانقطاع صلتهم مع التقاليد العلمية العالمية إلا بعد مضي زمن طويل، و حصلت هذه الثورة بشكل تدريجي و خافٍ، و لما كانت الخلافة العثمانية و الحكومة الصفوية و الإمبراطورية المغولية على أوج مجدها أي عندما كان سليمان اعظم القانوني في سدة الحكم في تركيا، و الملك شاه عباس في إيران، و الإمبراطور أكبر في الهند، من دون شك، كانت هذه الحكومات تُعد آنذاك من أكبر القوى و أعظمها، و حتى في ذلك الزمن نجد أن المسلمين كانوا قد انقطعوا عن التقاليد العلمية، و كانت مراكز العلم و الثقافة قد انتقلت إلى أوربا حيث كانت البحوث العلمية تجرى على أساس التراجم العربية في معاهد سالرنو (Solerno)، و فينيسيا (Venice)، و طليطلة (Toledo)، و سبق البرتغاليون الشعوب الأوربية الأخرى في إقامة حكوماتهم على البحر بسبب تحقيقهم المهارات في إنشاء السفن و الملاحة البحرية.

و لم يدرك الاتراك و الهنود و المصريون، بالتفوق الاوربي إلا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، اي بعد مضي ثلاثة أو أربعة قرون من السباق العلمي، و حتى في ذلك الزمن الحرج لم تكن تفكر هذه الحكومات إلا في إحراز التفوق العسكري و الهيمنة السياسية، و لم تكن تدرك اهمية تلك العلوم التي بفضلها كانت تظهر القوى الاوربية كمنافسيها، و بهذا الصدد اريد ان انقل الحكاية التي ذكرها البروفسور عبد السلام، في كتابه "الحلم و الحقيقة"، لقد بدا سليم الثالث في عام ١٧٩٩م تعليم العلوم الجديدة منها علم الجبر و علم المثلثات و علم قوانين حركة القذائف و علم المعادن وغيرها من العلوم في تركيا، و كان هدفه من هذا التعليم أن لا يتخلّف من البلدان الاوربية في صناعة الاسلحة و المعدات العسكرية، و لتحقيق هذا الغرض استقدم الأساتذة من السويد و فرنسا، حتى في ذلك الوقت لم يُبذل الاهتمام بالقدر الكافي لمعرفة العلوم الأساسية، و نتيجة لذلك لم تتمكن تركيا من منافسة البلدان الأوربية في صناعة الأسلحة و غيرها، و بعد مضي ٣٠ سنة على ذلك، نظّم محمد علي والي مصر برنامج تدريب العمال العاملين في مجال الاكتشاف و التنقيب عن الفحم و الذهب، و لكن فشل هو و من جاء بعده في الحكم في فهم ان مصر تحتاج إلى العلوم الأساسية الخاصة بطبقات الأرض ايضاً".

و ما يدعوني إلى العجب و الاستغراب هو أن الاتراك و المصريين و الهنود رغم اعترافاتهم بالتفوق العلمي للبلدان الأوربية لم يحاولوا تعلم اللغات الأوربية الحديثة مع ان اهميتهم السياسية و قدراتهم العسكرية بدأت تضمحل و تتدهور، و بالعكس عندما تمت ترجمة العلوم و الفنون من اللغة السريانية و الإغريقية إلى اللغة العربية في العهدين الأموي و العباسي، و انشئ بيت الحكمة، لم يكن احد في العالم المتحضر بأسره أقوى منهم، و لو قام أحد من الاتراك و المصريين و الإيرانيين و الهنود بترجمة العلوم الجغرافية و العلوم

الفلكية و الطبيعية و الرياضية و الكيماوية و علوم طبقات الأرض و غيرها من العلوم المتعلقة بإنشاء السفن و الملاحة البحرية الموجودة في لغة من اللغات الأوربية الحديثة لما وهنت و ضعفت التقاليد العلمية عند المسلمين إلى هذا الحد.

لا نجد في تاريخ القرون الوسطى إلا عددا ضئيلا جدا من الملوك الذي اهتموا بأمور العلوم و المعرفة، و من هؤلاء الملك الغ بك حفيد تيمور لنك الذي انشا مرصدا، و اشتهر بولوعه بالمناظرة مع العلماء حول علم الهيئة، و يمكن أن نشمل اسم الفلك همايون الذي كان مشغوفاً بمطالعة الكتب فقط، و مهاراجا جاى سينغ الذي أمر بإعداد زيجات محمد شاهي في بداية القرن الثامن عشر، إن هذه الأمثلة المتفرقة لم تكن من شانها أن تشجّع التقاليد العلمية.

لم يبذل المسلمون أي جهد يذكر في سبيل تعلم العلوم و المعارف الموجودة في اللغات الأوربية الحديثة في الوقت الذي بدأ الرعب يدب إلى قلوبهم من ازدياد قوة أوربا، بل إنهم ركزوا جلّ اهتمامهم على تعلم العلوم النقلية و التاريخ و الأدب و الشعر، و لم يكن نظام تعليمهم شاملا و مفيداً، و بهذا الصدد ذكر البروفسور ضياء الحسن الفاروقي في كتابه "النظام التعليمي للمسلمين" لو نسبر اغوار النظام التعليمي الرائج فيما بين المسلمين خلال القرون الوسطى في الهند، لنصل إلى نتيجة أن ذلك النظام التعليمي باكمله كان جامداً، سواء كانت العلوم النقلية أو العلوم العقلية، لقد كان النظام التعليمي مبنياً على التقليد، و فيما يخص بالعلوم النقلية فلا مفر من التقليد و لكن العلوم العقلية لا تعتقد إلا على العقل، غير أننا لا نجد أي حداثة أو خروج من التقليد في القرون الوسطى. قبل القرن الثامن عشر و التاسع عشر لا نجد أي مثال حظيت فيه العلوم العقلية بعناية و اهتمام، و لذلك لم تثمر جهود علماء فرنغي محل و خير آباد بسبب عدم وجود تقاليد علمية قوية و متصلة، و لا يفوتني أن أذكر

الجهود المشكورة التي قام بها فضيلة الشيخ الشاه ولي الله و التي ستظل موضع الفخر و الاعتزاز لانه أبدى اهتمامه المتزايد بالعلوم النقلية و العقلية كليهما في زمن يتسم بالإهمال تجاه العلوم و المعارف.

و يُعد إنشاء دائرة المعارف في مدينة حيدر آباد في نهاية القرن التاسع عشر خطوة مهمة تجاه الإلمام بثروتنا العلمية، و إعلام العالم المتحضر بها، لقد قام هذا المعهد العظيم الذي أسسه الملك نظام السادس بجمع الكتب و المخطوطات العربية المنتشرة في مكتبات العالم ثم بنشره باهتمام بالغ، و تشكل هذه الكتب المنشورة ـ من هذا المعهد في الادب و اللغة و التاريخ و السيرة و الطب و الرياضية و الفلسفة و الفلك ـ حلقة وصل بين تقاليد الثقافة العربية و بين تقاليد الثقافة الإغريقية و المصرية، و لم يحذُ الملك نظام السابع حذو سلفه فحسب، بل شجّع هذه العملية بإصدار امره لترجمة كتب العلوم الجديدة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الاردية، إن الجامعة العثمانية التي تعتبر أول جامعة أسست في شبه القارة الهندية لتدريس العلوم و الفنون بواسطة اللغة الأردية، و لتوفير الكتب و المقررات أنشئت دار الترجمة في هذه الجامعة، تتجلى اهمية اللغة الإنجليزية لكونها لغة العلوم و الفنون، و لا يمكن اكتساب العلوم و الفنون في الوقت الحاضر إلا عن طريق لغة من اللغات الأوربية الحديثة، سواء اللغة الفرنسية أو الألمانية او الأسبانية، و لهذا الغرض قام السير سيد احمد خان بحملة لتعلم اللغة الإنجليزية، و حاول السير سيد احمد خان جاهدا في القرن الماضي لإيجاد ربط بين المسلمين و تقاليدهم العلمية الزاهرة، لم يؤسس السير سيد احمد خان جامعة علي غر الإسلامية فحسب، بل اسس ببيت الحكمة الجديد في الهند بمساعدة من العلماء الكبار امثال العلامة شبلي النعماني و حالي و نكاء الله و جراغ الدهلوي، و فتح آفاقاً جديدة امام المسلمين الهنود في بناء الهند الحديثة، لقد كان شاعر

المشرق العلامة محمد اقبال اكثر الناس شعورا بتخلف المسلمين في ميدان العلم و المعرفة، و كان إحساسه بفقر المسلمين العلمي و خسرانهم بقدر مطالعته للعلوم الجديدة و القديمة، و بقدر تفكره في هذا المجال، و نجد الإشارات إلى ذلك بكثرة في أشعاره، و فيما يتعلق بسلوك غير علمي تجاه مفهوم العلم بأن العلم لا يعني إلا علم الدين فقط، فهو مفهوم خاطيء، و يحتاج إلى ان نعيد النظر فيه و نبحث عن الأسباب التي أدت المسلمين إلى مثل هذا التخلف و الانحطاط، فإن الشعب الذي اغلق على وجهه باب العلوم الجديدة منذ اربعة أو خمسة قرون، كيف يمكنه أن يدّعى بإحراز تفوّق في العلوم و الحكمة، و اما الذي يزيد الطين بلة، فهو ان المصلحين و قواد الشعب لا يعيرون اي اهتمام بانقطاع المسلمين من تقاليدهم العلمية، و لا يعتبرونه سببا رئيسيا لتخلف المسلمين، و إنما يحاولون إيجاد سبب تخلفهم و انحطاطهم في مكان آخر.

بدأت حديثي من المقال الذي كتبه السير سيد احمد خان بعنوان "قول متين در إبطال حركت زمين" و ارى لزاما ان انكر في هذا الصدد، ان السير سيد أحمد خان عندما طلب من شيخ الشعراء الأردويين الاستاذ غالب كتابة تصدير للكتاب "آئين أكبري" فردّ عليه الأستاذ غالب بأنه "لكل عهد قانونه، إن البواخر و الرسائل المرسلة عبر البرق تدلان على عهد آخر" لو عاش كل من السير سيد أحمد خان و الأستاذ غالب بغداد المامون، و قرطبة الناصر، لما كتب السير سيد أحمد خان مقاله عن موضوع أكل الدهر و شرب عليه قبل زمان، و لما بلّغ الأستاذ غالب السير سيد احمد خان عن قدوم عهد لا عهد له به، و لكنهما كانا من دلهي الملك بهادر شاه ظفر التي كانت خالية من التراث العلمي العالمي تماماً.



ظاهرة إستيراد الكلمات الغربية، ضرورة وضع الحدود المأمونة للحفاظ على اصالة اللغة العربية

بقلم: أ. د. سيد إحسان الرحمن

في هذه الايام حيث بدأ العالم يأخذ قفزات واسعة في كل المجالات العلمية و غير العلمية المرتبطة مع الحياة البشرية على صفحة هذه الارض، فمن سيجرؤ على رفض و إستنكار التفاعل في مختلف المجالات الحياتية في شكل التبادل فيما بين اللغات. و التبادل فيما بين اللغات العالمية المتقدمة منها و النامية أصبح أمرا ضروريا جدا نظرا للتقدم السريع الخطى. فنرى ان كل لغة متقدمة من امثال اللغة الإنجليزية و الفرنسية و الألمانية و الروسية تاخذ و تعطى بعضها البعض تسميات الاختراعات و الإبتكارات الحديثة و هذا أمر لا مفر منه. فبينما هذه الحال مع اللغات المتقدمة فيمكن تخمين نطاق الإستعارات اللغوية للغات النامية و المتخلفة. اللغة العربية مثل اللغات العالمية الأخرى منهمكة في زيادة إثراء مخازنها اللغوية عن طريق الاستعارة من اللغات الغربية. و لكنني ارى انه كما توجد هناك مبادي و ضوابط لتنظيم أي نوع من التبادل فيما بين شعوب العالم في مختلف المجالات كذلك يجب ان تتواجد هناك مبادي و ضوابط للتحكم في الإستيراد اللغوي و لتحديد مجاله و نطاقه مع ضرورة التماسك بها. و لكن للأسف البالغ نجد في هذه الايام ان

اللغة العربية إجتازت كل الحدود المعقولة فيما يتعلق بالاستعارة من اللغات الأجنبية و اخيرا بدأت تستعير كلمات و تعابير من اللغات الأجنبية و بخاصة من اللغات الغربية بلا حدود و بصورة عشوائية جداً. عندما نقرأ الجرائد و المجلات العربية في هذه الأيام نجد أن صفحاتها تعج بالكلمات المستعارة من اللغات الغربية مكتوبة كما هي تلفظ بلغاتها الأصلية بالحروف العربية. و هي تلك الكلمات التي توجد لها بدائل جميلة و مشنفة للآذان في اللغة العربية الفصحى منذ القديم. و هي نفس هذه المشكلة التي ناقشتها بإيجاز في مقال لي بعنوان "الكلمات الغربية في اللغة العربية - بين الضرورة و الموضة". بينما اعارض بكل صراحة إستعارة الكلمات و المصطلحات و التعابير المتواجدة لها البدائل الحسنة في اللغة العربية الأصيلة، اود هنا أن اؤيد فكرة إستعارة الكلمات "الضرورية جدا" و التعابير الأجنبية، غربية كانت هي أو شرقية. من ابسط قواعد الإستعارة أن نأخذ من الغير فقط الذي لا يوجد عندنا و بمقادير كافية و لمدد ضرورية. فان نسينا هذه القواعد البسيطة و اخذنا نستعير هذه الكلمات كما هي فاننا نحقّر انفسنا ليس فقط في اعين المعطى بل ايضا في اعين الجميع. يضاف إلى ذلك أن الإستعارة العشوائية و اللامحدودة تجعلنا نفقد حتى الإحترام الذاتي و نتحول إلى كائنات بدون هوية. هذا المبدأ الأساسي الذي ينطبق على المجالات الإنسانية الأخرى ينطبق كذلك على اللغات. إنما اللغات هي البوابة إلى قلوب الشعوب و من خلالها يمكن التحكم في الشعوب — في ثقافتها و آدابها و عن طريق ذلك يمكن التحايل دون تقدمها. و هذا هو السبب بالضبط الذي من اجله تعمل الشعوب المتقدمة لزيادة توسيع نطاق لغاتها و تنفق أموالا طائلة في الدعاية أن لغاتها فقط هي القادرة — دون غيرها و بخاصة جدا اللغات الإفريقية و الآسيوية، على التعبير عن التقدم العلمي -

التقني المتحصل في هذه الايام و الدول المتقدمة ايضا لا توفّر اية محاولات في زيادة ترويج لغاتها بكل صورها. نرى في هذه الايام أن الدول الاوروبية ـ الغربية بهذه الصورة أو تلك تشجع "أصدقائها" في الدول المختلفة على تعلم لغاتها و التحدث بها على حساب لغاتهم المحلية "غير المتقدمة" و غير القادرة على التطور و التمشي مع التقدم السريع المتحصل في العالم في جميع مجالات الحياة و بخاصة في مجال العلوم و التكنولوجيا. و نحن في الدول النامية و الدول المتخلفة معتمدين على "إخلاص" أصدقاءنا المتقدمين، اصبحنا نؤقن بعدم مقدرة لغاتنا الإفريقية ـ الأسيوية على إحتواء المعاني و الافكار و المفاهيم الجديدة. و اخذنا نتوجه الآن إلى الغرب مسترشدين في كل شيء حتى في امور "تطوير" لغاتنا و تسهيلها و تشنيبها. كل شيء غربي شيء مقدس لنا و كل كلمة غربية كلمة شاملة تحوى مجلدات من المعاني و يبدو من القرائن ان اللغة العربية قد دخلت في منافسة شديدة و مسابقة قاسية مع اللغات النامية "غير القادرة" على التعبير و التمشي مع التقدم السريع المتحصل في العالم، حتى تخلفها وراءها في الإستعارة و الإستفادة من اللغات الغربية لكى تتحلى اكثر من غيرها و تتسلح لإستيعاب العلوم الجديدة و تتبنى الإختراعات و الإبتكارات الحديثة و بالنتيجة نجد في هذه الايام أن الصحف و الجرائد و المجلات العربية مليئة "بالمصطلحات العلمية و الكلمات المعبّرة" من امثال: كزرونة أو كسرولة بمعنى القدر و الاوتوموبيلات بمعنى السيارات و الموبيليات بمعنى الاثاث و الإستيك بمعنى السلسلة و البلاستيك بمعنى اللدن و كاؤتشوك بمعنى الإطار أو المطّاط و التواليت بمعنى المرحاض و الفوتيل بمعنى الكرسي المريح و البدروم بمعنى البناء القاعدى و الفاترينة بمعنى شباك العرض و الشيك بمعنى الانيق و الشياكة بمعنى الاناقة و الاشيك بمعنى الاكثر اناقة و المنهل بمعنى

فتحة التفتيش على المجارى و كنسل بمعنى الغى و تلفن بمعنى إتصل بالهاتف أو التلفون و ما إلى ذلك، فلننصف ما اذا سيمكن لمثل هذه الإستعارات اللغوية أن تثرى اللغة العربية؟ و الرد على ذلك بالتاكيد من جميع الجهات، يكون لا. بلى على خلاف ذلك فان مثل هذه الإستعارات العشوائية تضر باللغة العربية الفصحى حيث أن الكلمات العربية الأصيلة ستضيع مع إضمحلال استخدامها و ترويج بدائلها الغربية. هذا لا يعنى البتة إنني لا اؤيد فكرة إستعارة الكلمات. و تسميات الإختراعات و الإبتكارات العصرية. لا، ليس الامر كذلك. إن الذي لا أريده بل أعارضه هو الإستعارات اللغوية التي توجد لها البدائل الحسنة في اللغة العربية و تتواجد لديها منذ قرون كما ذكرت بعض الكلمات آنفا. أما تسميات الإختراعات و الإبتكارات الحديثة من أمثال التلفزيون و الراديو و التلفون و التلغراف و الرادار يجوز استعارتها على الرغم من مقدرة اللغة العربية على توفير بدائلها. فمثلا المرناة قد تبدل التلفزيون و المذياع قد يبدل الراديو و البرقية قد تبدل التلغراف، و لكنني لا أصر على استخدامها حيث انها أشياء أوجدتها بلاد الغرب فلا باس أن نستوردها مع تسمياتها الأصيلة إبقاء على شخصيتها و إحتراماً لموجديها إلا انني أصر على القول إن اللغة العربية في مقدورها توفير تسميات مناسبة لكل الإختراعات و الإبتكارات غربية كانت أو شرقية كما نرى ازاء الصاروخ و الطائرة و الدبّابة و المدفع و النوادر أو التحف المعمرة و القمر الصناعي و الطائرة العمودية و العقل الآلي و المواصلة البعيدة و الضبط البعيد و القائمة بها طويلة و طويلة. و هي هذه الإستعارات بهذه الطريقة التي ستثرى اللغة العربية. هكذا لا نوجد فقط تسميات جديدة للمخترعات و المبتكرات الحديثة بل أيضا نجعلها جزء لا ينفك من لغتنا و حياتنا و نستوعبها في اللغة العربية الفصحى بدون الإضرار باللغة العربية

الفصحى و بدون الإخلال باللغة المنقول منها هذه التسميات. بجانب هذه التسميات المعربة فان الذي يلعب دورا اكبر في إثراءها هو قابليتها لاستيعاب التعابير الأجنبية.

تمشيا مع العالم المتقدم في كل آن و ازدياد الإعتماد المتبادل بين كل الشعوب و الإحتكاك المتزايد فيما بينها فان كل شخص على مستواه و طبقا لهواه و كل شعب على مستواه الوطني و طبقا لضروراته يحاول التعرف على الشعوب الأخرى. و هذا الامر يمكن تحقيقه من خلال قراءة اْدابه في اللغة الاصيلة أو في صورتها المترجمة و من خلال هذه التراجم لآداب شعب معيّن ندرسه و نفهمه. كلما كانت هذه التراجم قريبة لاصولها في المعنى و التعبير، سهل علينا فهم ذلك الشعب بصورة احسن و اشمل و نجد ان اللغة العربية تستطيع أن تلعب دورا حيويًا على هذه الجبهة الإنسانية حيث انها لا تنكمش و لا تتردّد في "تعريب" التعابير الأجنبية. فمثلا نقرأ في هذه الأيام في الكتابات العربية التعابير من أمثال: جولة عمل و ورقة عمل و غداء عمل و العملية الانتحارية و تذويب الفوارق و الجدل الصحي و النقد البنّاء و تمييع الأموال و إنفاق الليل و سيولة الإعلام و سيولة المرور و منح الثقة و في حالة التسوية و نظيف اليد و ما إلى ذلك. إنما هذه التعابير وغيرها هي كلها تعابير بشرية. على الرغم من كونها غير عربية من حيث مزاج اللغة العربية الفصحى فانها صيغت في إطارها العريض بدون الإخلال بقواعدها و بدون ادخال الكلمات الاجنبية و هكذا ادخلنا المعاني و التعابير الاجنبية في اللغة العربية الفصحى و أوسعنا مخزونها من الكلمات و التعابير و هذه المعاني حيث أنها معان بشرية و مفاهيم إنسانية لذا فانها تكون مفهومة لدى الجميع بدون اي تكلف و بدون اية محاولة. على الرغم من كونها غريبة على العربي الأصيل فإنها تتغلغل إلى عميق قلبه و يطمئنه بانه عرف شيئا جديدا عن شعب آخر و عرف انّ شعبا آخر

او فـريـقـا من الناس يأكل "غداء عمل" حيث انه يأكل " تصبيرة"، إن شعبا آخر "يـنفق الليل" بينما هو يبيت الليل، إن شعبا آخر "ينوّب الفوارق" بينما هو يزيل الـفـوارق و هـكـذا دوالـيك. بـيـنـما اعتقد أن مثل هذه الإستعارات.اللغوية على مـسـتـوى الأفـكار و المفاهيم الإنسانية بصورة منتظمة و في حدود أطر اللغات الـنـحوية و الصرفية تثرى اللغات من حيث مخزونها اللغوي فهي تفتح في نفس الـوقـت نـوافذ على الشعوب و توجد وسيلة للتقارب فيما بينها. و أعتقد كذلك أن الإسـتـعـارات الـلـغـوية العشوائية جريا وراء الدعاية الغربية حول عدم صلاحية الـلـغـة الـعـربـيـة الـفـصـحـى فيما يتعلق بإيجاد تسميات مناسبة للإختراعات و الإبـتـكـارات العصرية و استيعاب المفاهيم الإنسانية المتطورة، لن تفيدها بل على خلاف ذلك أنها تكون مضرة لها و تفقدها شخصيتها حيث أنها تحولها رويدا رويـدا إلـى لـغـة غـير اللغة العربية الفصحى كما عرفناها لليوم. و إذا استمررنا بنفس السرعة في محاولاتنا لإدخال اللحون في اللغة العربية الفصحى و تغريبها مسترضين "أولي" العلوم و المعارف الحديثة و أصحاب الإختراعات و الإبتكارات العصرية فأخاف أن اللغة العربية ستصبح حديث "الماضي" في القريب العاجل و يـنـدرج اسـمـها في قائمة اللغات الكلاسيكية من أمثال اللغة اللاتينية و اللغة الـسـنسكريتية التي سوف يتعلمها الناس لإجراء البحوث في "ماضينا". فلنعرف جـيـدا أن كـل الـعالم يتطلع بفارغ الصبر إلى ذلك اليوم الذي ستصبح فيه اللغة الـعربية لغة غير منطوقة. ذلك اليوم سيكون يوما ذهبيا حيث يتمكن الاغيار من تـسـويـة الحسابات مع الناطقين باللغة العربية فلذا من الضروري على الاقل ألّا نساعدهم بتمهيد طريقهم لتحقيق منشودهم الغالي هذا.



من الإصدارات الحديثة

د/ شمس تبريز خان

اسم الكتاب: "دليل فهارس المجلدات الستة لمخطوطات اللغة العربية المخزونة في مكتبة رضا برامفور".

إعداد: ابوسعد الإصلاحي، الحجم ٢٣٤ صفحة من القطع الكبير.

الثمن: أربع مائة روبية هندية أو ١٥ دولارا امريكية.

الناشر: الدكتور وقار الحسن الصديقي، مكتبة رضا رامفور، يوبى، الهند.

مكتبة رضا في رامفور من أهم مكتبات الهند و اشهرها، أقامها النواب و الأمراء في ولاية رامفور قبل مائتين و خمسين سنة تقريباً و المكتبة تشتمل على كمية كبيرة من المخطوطات العربية و الفارسية و الأردية وغيرها و كذلك على النوادر و الآثار القديمة و القيّمة من الآلات و الظروف و الالواح و الصور و التماثيل و عيّن لشئون المكتبة و اعمالها أمراء رامفور العلماء و الأدباء المشاهير أمثال الشاعر الكبير الامير المينائي و الحكيم القائد محمد اجمل خان، و الأديب الحافظ أحمد علي خان الشوق وغيرهم.

و قام المحقق الفاضل امتياز علي خان عرشي بمسئولية إدارة المكتبة خير قيام و حقق النسخ الخطية باللغة العربية و الفارسية و قام بطبعها و بذلك تولى مهمة إحياء التراث الهندي العربي الذي كان على وشك الانقراض و الضياع

كما قام الأستاذ عرشي بإعداد فهرس مفصل للمخطوطات العربية في ستة مجلدات ضخمة مشتملة على (٦٢٢٢) نسخة خطية مع التعريف بأسماء الكتب و موضوعاتها و تراجم مؤلفيها.

و قام على شئون المكتبة الأثرى الفاضل الدكتور وقار الحسن الصديقي قبل خمس سنوات فارتقت المكتبة بصفة ملحوظة و نشرت كتب خطية قيمة محققة بدقة في حلة طباعية قشبية المكتبة تقوم كذلك مجلة علمية دورية و كما تنظم الحفلات و الندوات العلمية و التاريخية على مستوى قومي و دولي و أقيم فيها معمل لصيانة و تحسين وضع الكتب الخطية النادرة و قام تحت اشرافه السيد ابو سعد الاصلاحي بإعداد هذا الدليل العلمي لفهارس الكتب العربية بالترتيب الأبجدي الذي يسهل على المحققين و الباحثين في مهمتهم العلمية و الفنية حيث توجد أما أسماء الكتب و المؤلفين إعداد الصفحات المتعلقة المطلوبة في الفهارس الستة الكبيرة.

و الدليل قد طبع بخط جميل و ورق من نوعية جيدة و في صورة جذابة و مشتمل على صور صفحات فوتوغرافية عديدة من الكتب الخطية التي زادت في قيمة الكتاب و ضاعفت في جماله الظاهري فمن اللوحات الملونة صفحة من القرآن المجيد تنسب كتابته إلى سيدنا علي بن ابي طالب، المكتوب على جلد غزال، و كذلك صورة صفحة من القرآن الكريم المنسوب كتابته إلى سيدنا جعفر الصادق رحمه الله في القرن الثامن الميلادي، و بعد ذلك صورة صفحة من القرآن الكريم الحكيم الذي نسب خطه إلى الإمام الثامن في القرن التاسع الميلادي. ثم نشرت صفحة من تفسير القرآن للإمام سفيان الثوري من القرن التاسع نفسه و بعد هذا صورة صفحة من القرآن الكريم بخط ابن مقلة في القرن العاشر الميلادي. و هي آية في جودة الخط الكوفي الراقي و نشرت بعد ذلك صفحة من النكت و العيون للسيد أبي الحسن على المكتوب في سنة سبع

و سبـعـين و خمسماية. و بعد هذه صورة الغلاف لشرح الرضى للكافية الذي كان في مكتبة السلطان المغولي شاهجهان و عليه نقوش خواتم السلطان و الامراء و عـلـيـه خـتـم الـسـيـد غـلام على آزاد البلجرامي و قد كتب بخطه "من عوارى الـزمـان إلـى الـفـقـيـر غلام علي المتخلص بآزاد الحسينى الواسطي البلكرامي عـامـلـه بـلـطـفه السامي ١١٦٩هـ" و بعد ذلك صورة الغلاف لديوان شعر الحادرة كـتـبـه ياقوت المستعصمي الكاتب الشهير في عصره و تليها صورة صفحة من الأسماء الحسنى، بخط الكاتب عماد الحسيني في سنة ٩٨٧ هـ. و بعدها صفحة مـلـونـة من مـخـطـوط "عـجائب المخلوقات للقزوينى"، و بعدها صور مختلفة مـلـونـة بـالألـوان أخـتـيرت من "صور الكواكب"، لعبد الرحمن الصوفي المنجم الشهير في العصر العباسي.

و دلـيـل الـفـهـارس يـشـتـمـل على علوم القرآن و علوم الحديث، و الكلام، و الـفـقـه و أصـول الـفقه، و الجدل و الخلاف، و التصوف، و المنطق و الفلسفة، و الـحـسـاب و الـطـب و الـتـاريخ و السير مع ذيولها و فروعها بحسب عقائد أهل الـسـنـة و الـشـيـعـة و الـفرق الإسـلامـيـة و غـير الإسلامية. فاصبح هذا الدليل بـخـصـائـصـه و مـزايـاه، دلـيلا كاملا و جامعا يدل على الكتب الخطية النادرة بتفاصيلها الضرورية و يلقى الضوء الكافي على أسماء المؤلفين و احوالهم خلال الـعـصـور الـمـاضـيـة و يسهل على الباحث في جهوده العلمية " و لا ينبئك مثل خبير".

فـالـسيد الإصلاحي و السيد المشرف الدكتور وقار الحسن الصديقي القائم بـالاعـمـال بـالـمـكـتـبـة جـديـران عـلـى سعيهما المشكور لكل شكر و تقدير منا و من الأوساط العلمية و العربية في الهند و خارجها على السواء.



كلمة التحرير:

مضى اكثر من نصف القرن على الرحلة الثقافية التي ابتدأت في عام الخمسين بعد الف و تسعماة لهذه المجلة العربية الثقافية الربع سنوية المعروفة بـ "ثقافة الهند" التي ادت بتمام النجاح دور سفير هندي ثقافي لدى العالم العربي الشقيق الواسع الأرجاء الممتد على القارتين العظيمتين ـ آسيا و إفريقيا. و قد بذل كل من رؤساء التحرير الاسبقين قصارى جهودهم من اجل تقديم صورة واقعية للوطن العزيز ـ الهند ـ بلد العلوم و الفنون و الديانات و الحضارات و اللغات الكثيرة المتنوعة. يحسن تجديد ذكرياتهم بالمناسبة بمشاعر الإمتنان و الاستحسان لما ساهموا بعطاءاتهم البارزة في تصوير الثقافة الهندية امام إخوتهم المتكلمين بلغة الضاد. و هم المرحومون السيد عبد الرزاق مليح آبادي رئيس التحرير المؤسس و السيد شمعون طيب لوكهند والا و كلاهما احتل منصب رئيس وحدة اللغة العربية بإذاعات عموم الهند الخارجية ايضاً. ثم قام بمسئولية رئاسة التحرير الأستاذ الدكتور سيد مقبول احمد، أستاذ و الرئيس المؤسس لمركز دراسات غرب آسيا بجامعة علي كره الإسلامية غفر الله لهم و جزاهم أحسن الجزاء فقد كانوا بارزين بعمق الفكر و غزارة العلم وسعة الإطلاع و جمال الثقافة.

ثم تولى هذه المسئولية العلمية الأستاذ الدكتور نثار احمد الفاروقي رئيس قسم اللغة العربية بجامعة دلهي إذ ذاك الذي تخلى عن هذه المسئولية للأستاذ الدكتور زبير احمد الفاروقي استاذ قسم اللغة العربية و آدابها و رئيسه